تأملات في قضية إعجاز القرآن الكريم

بقلم

دكتور

عبد الفتاح عبد الغني محمد إبراهيم العواري

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين — القاهرة

جامعة الأزهر

(٣٢ — حولية كلية أصول الدين)

تمهيد

لا يرتاب ذو مسكة من عقل ودين فى أن القرآن الكريم ثابت قطعاً متواتر يقيناً، ذلكم لأن كلام الله عز وجل ما أوجب علم اليقين لأنه أصل الدين وبه ثبتت الرسالة وقامت الحجة على الضلالة وكتاب هذا شأنه لاشك أنه قد تواتر نقله حتى بلغ مرتبة العيان وأوجب الإيقان وكذلك إعجازه قد تواتر يقينا فما نزل القرآن إلا للإعجاز والتحدى والهداية وقد اشتمل القرآن على آيات تحكى لنا التحدى بإعجازه ومع ذلك لم يوجد له معارض ولو وجد له معارض أتى بسورة مثله لتوفرت الدواعى على نقلها بالتواتر أيضاً ، فإعجاز القرآن هو الدعامة الأولى المتينة القوية التى يرتكز عليها الإسلام ذلك أن الجاحدين لرسالة محمد — ﷺ — والمشككين فى تعاليم الإسلام مهما اتسع لهم ميدان الجحد والتشكيك وأعانتهم قدرتهم على التمويه والتضليل تضيق بهم السبل وينضب فى ألسنتهم معين القول حين يصلون إلى النقطة البدء وهى إعجاز القرآن وثبوت — بما لايدع مجالا للشك — أنه أحداً من فصحاء العرب وذوى اللسن فيهم — وهم كثير — لم يستطع أن يجىء بمثل أقصر سورة منه ولو مفتراة وأن أحداً ممن جاء بعدهم لم يستطع ذلك فدل عجز أولئك جميعاً على أن القرآن معجز وأنه من عند الله وأن رسالة محمد حق وأن التعاليم التى جاء بها القرآن والسنة النبوية المطهرة الصحيحة تعاليم تهدف إلى خير البشرية وأنه من الغباء الوقوف فى سبيلها أو محاولة الطعن والنيل منها »[1] .

---

(١) راجع : حول إعجاز القرآن للأستاذ الدكتور . على العمارى ص ٣ هدية مجلة الأزهر العدد شهر شوال ١٤١٩ هـ السنة الحادية والسبعون ج ١٠ .

قال شيخ الأشياخ المرحوم الأستاذ الدكتور . محمد عبد الله دراز :
(ارجع إلى التاريخ فاسأله : ما بال القرون الأولى ؟ ينبئك التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن الكريم فى عصر من أعصاره وأن بضعة النفر الذين أنغضوا رءوسهم إليه باء وا با لخزى والهوان وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان .

أجل لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم فى عصر نزول القرآن وما أدراك ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربى وأرقى أدوار التهذيب اللغوى ، وهل بلغت المجامع اللغوية فى أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية فى ذلك العصر من العنايه بلغتها حتى أدركت هذه اللغة أشدها وتم لها بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها »[1] .

ثم مضت القرون الأولى وورث اللغة عن أهلها الوارثون غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد كانوا أشد عجزاً وأقل طمعاً فى هذا المطلب العزيز فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم وكان برهان الإعجاز قائما أمامهم من طريقين طريق وجدانى . وطريق برهانى . ولا يزال دأب الناس والقرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها »[2] .

أما ما تغوه به بعض العرب من مثل قولهم كما حكى القرآن عنهم (لو نشاء لقلنا مثل هذا)[3] وقولهم : (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه

---

(١) راجع . النبأ العظيم ص ٧٦ . ط السعادة بمصر .
(٢) راجع : النبأ العظيم ص ٧٨ .
(٣) سورة الأنفال آية (٣١) ونصها (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إلا أساطير الأولين) .

قوم آخرون)[1] فلا يعدو العناد والمكابرة بدليل أنهم لم يقولوا (مثل هذا) مع طول التحدى و « التبكيت » ثم لجوئهم إلى الحرب ليقضوا بها على دعوة محمد ﷺ وهم قوم عرفوا برزانة الأحلام ورجاحة العقول وأقرب الأمور إلى الفطر السليمة أن تبطل دعوى خصمك بأيسر السبل متى قدرت عليه ، فلو كان فى مقدورهم أن ينفذوا هذا الذى يقولون ما تجاوزوه إلى الحرب التى لا تؤمن نتائجها ويدليل أنهم كانوا يمتدحون بلاغة القرآن حين يخلون فى مجالسهم ويأمنون أن يطلع عليهم أحد فيقولون كما ورد على لسان الوليد بن المغيرة : « إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة »[2] وإنا لنتساءل : إذا كان إعجاز القرآن بلغ درجة علت قدرة المخلوق علماً وحكما وبياناً للعلم والحكمة مما جعل العلماء يحارون فى تحديد وجه الإعجاز بعد ثبوته بالعلم اليقينى الذى بلغ حد الضرورة .

أقول : إذا كان ذلك كذلك فما الذى دفع العلماء بعد ذلك إلى الاشتغال بقضية الإعجاز القرآنى ؟

خير من يجيب على هذا التساؤل ويشفى غليل سائله هو ما سطره قلم الأستاذ الكبير المرحوم / الرافعى وذلك حيث قال عليه الرحمة : (لما كثر الكلام فى قضية الإعجاز القرآنى فى مجالس العلم نهض جمع من العلماء بتدوين ما كان يقال فى كتب ورسائل خاصة بين أهل العلم فكان بعضها على سنن الهدى وبعضها على غير ذلك فدفعهم إلى تصنيف هذه الكتب والرسائل انتشار مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة وخوفهم من

---

(١) سورة الفرقان آية (٤) ونصها (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً) .
(٢) راجع : حول إعجاز القرآن ص ٥ ـ ٤ .

أن يلتبس ذلك على العامة بالتقليد أو العادة وعلى الحشوة من أهل الكلام الذين لارسوخ لهم فى اللغة ولا سليقة لهم فى القصاحة ولاعرف لهم فى البيان مست الحاجة إلى بسط القول فى فنون من فصاحته ونظمه ووجه التأليف فيه ، أ . هـ[1] .

أقول من هذا النص الذى أبان لك عن وجه الحاجة التى دفعت العلماء بعد ذلك إلى التأليف والتصنيف فى هذه القضية يتجلى لك أيها القارىء الكريم أن علماء المسلمين منذ ذلك الحين شغلوا بقضية الإعجاز وطال بينهم الجدل وألفت الكتب الكثيرة .

بل أقول لقد نشأ علم هو من أوسع العلوم اللسانية (العربية) وأدقها لخدمة قضية الإعجاز هو علم البلاغة بأقسامه (بيان ومعانى وبديع) . ومع ذلك لايزال مجال القول متسعاً فى هذه القضية وسيبقى العلماء يطيلون النظر فى القرآن الكريم ليقفوا على أسرار جديدة لم تظهر لأسلافهم وهكذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وإيمانا منّا بأن هذا المجال لايزال متسعاً وأن بحث الباحثين لايزال مستمراً حول هذا الجانب من جوانب النظر فى القرآن الكريم أردت أن أساهم بجهدى المتواضع بإلقاء الضوء على قضية الإعجاز ووجوهه فى القرآن الكريم مستنيراً فى كل ذلك بما كتبه علماء الإسلام الأجلاء فى القديم والحديث .

وقد انتظمت خطة هذه الدراسة مباحث ثلاثة وخاتمة .

المبحث الأول : بيان حقيقة الإعجاز لغة واصطلاحاً .

---

(١) راجع : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٥١ .

المبحث الثانى : بيان الأوجه البارزة لإعجاز القرآن الكريم وبيان أن الأوجه التى انتظمها الإعجاز القرآنى لايمكن حصرها وتعدادها .

المبحث الثالث : علاقة الإعجاز بعلم التفسير ومدى حاجة المفسرين إليه .

أما الخاتمة : فتتضمن أهم نتائج هذه الدراسة .

واستمنح الله العظيم العون والمدد وأسأله الهداية والرشد فى تفصيل القول عن هذه القضية مراعياً فى كل ذلك أصول البحث العلمى .

وبعد : فهذا أوان الشروع فى المقصود فأقول بعون الله العلى المعبود .

المبحث الأول

بيان حقيقة الإعجاز

الكلام فى هذا المقام يتطلب من الباحث أن يكشف النقاب ويميط اللثام عن حقيقة الإعجاز من جهتين اثنتين :

أولاهما : بيان حقيقة الإعجاز عند أهل اللغة .

ثانيتهما : بيان حقيقة الإعجاز فى الاصطلاح .

أما بيان حقيقة الإعجاز لغة : فإن الناظر فى كلام أهل اللغة يرى أنهم قد حدوا الإعجاز بقولهم : « بأنه إثبات العجز والعجز مقابل للقدرة .

تقول : عَجَزَتْ المرأة تعجُزُ فهى عجوز أى أسنت وكبرت ...

وتقول : عجز عن الأمر عجزاً من باب ضرب أى ضعف ولم يقدر عليه فهو عاجز أو لم يكن حازماً فيه . . . والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء[1] .

قلت : فمن كلام أهل اللغة يتجلى لك أن الإعجاز مأخوذ من الضعف الذى يقابل القدرة فالعجز إذن هو عدم القدرة .

وحقيقة الإعجاز إذن هى إثبات العجز الذى يعنى الضعف وعدم القدرة وعدم الحزم فى الأمر .

(١) راجع فى هذا المقام كلام صاحب اللسان مادة عجز فصل العين مع الزاى .

فإن قلت: وهل حقيقة الإعجاز التى هى إثبات العجز باقية على حقيقتها اللغوية أم أنها صارت من قبيل المجاز وإذا كانت من قبيل المجاز فمن أى أنواع المجاز هى ؟

قلت : حقيقة الإعجاز التى هى إثبات العجز ليست باقية على الحقيقة اللغوية بل هى صارت من قبيل المجاز حيث إن الإعجاز إثبات العجز استعير لإظهاره أعنى إظهار العجز فى الغير ثم استعمل فى إظهار صدق الرسول ﷺ فهو مجاز مبنى على مجاز لغوى وليس عن حقيقة لغوية والعلاقة بين المجازين اللزومية .

إذن فإعجاز القرآن هو إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بمثله المستلزم إظهار صدق الرسول ﷺ فى دعواه الرسالة .

أو قل الإعجاز هو إظهار صدق النبى ﷺ فى دعوى الرسالة مجازاً عن إظهار عجز المرسل إليهم عن معارضته .

وقد نبه على هذا الأمر المحققون من العلماء عن كيفية انتقال أصل الإعجاز الذى هو إثبات العجز لغة عن هذا المعنى الحقيقى إلى لازمه مجازاً والذى هو إظهار عجز المرسل إليهم ثم انتقاله عن هذا المجاز إلى لازمه كذلك والذى هو إظهار صدق الرسول — ﷺ — ولنكلك الآن إلى قلم العلامة البنانى عليه الرحمة وذلك حيث قال تعقيباً على قول الجلال المحلى فى شرح قولة ابن السبكى فى جمع الجوامع : (للإعجاز) (وبالإعجاز أى إظهار صدق النبى ﷺ فى دعوى الرسالة مجازاً عن إظهار عجز المرسل إليهم عن معارضته) (قوله — أى قول الجلال المحلى — مجازاً عن إظهار . . إلخ) : المتبادر منه أن الإعجاز بهذا المعنى حقيقة لغوية وهو خلاف

قول السعد : إن الإعجاز إثبات العجز استعير لإظهاره فإنه يقتضى أنه مجاز فيحمل كلام الشارح على أنه حقيقة عرفية وحينئذ فاستعماله فى إظهار صدق الرسول ﷺ مجاز مبنى على مجاز أيضاً لغوى لا عن حقيقة لغوية والعلاقة فى المجازين اللزوم لاستلزام إثبات العجز إظهاره واستلزام إظهاره إظهار صدق النبى ﷺ) ؟ هـ[1] .

هذا ما يتعلق بجهة تعريف الإعجاز عند اللغويين والله أعلم .

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٥ .

الجهة الثانية

تحقيق القول فى المعنى الاصطلاحى

من المعلوم أن رسالة محمد ﷺ بنيت على معجزة القرآن الكريم دون ما سواها من المعجزات الكثيرة التى أيد الله بها نبينا محمداً ﷺ غير أن تلك المعجزات الأخرى وقعت فى أوقات وأحوال ومع ناس مخصوصين والبعض منها نقل نقلا متواتراً والبعض الآخر نقل نقلا آحادياً .

أما القرآن الكريم فهو المعجزة العامة ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة ودليل ذلك متواتر من نص القرآن فى عدة آيات جاءت تتحدى العرب بأن يأتوا بسورة مثله أو بعشر سور مثله مما هو معلوم .

ناهيك أن القرآن نادى بأنه معجز لهم اقرأ قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتو بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار)[1] الآية . فإنه سهل وسجل . سهل عليهم أن يأتوا بسورة من مثل سوره وسجل عليهم أنهم لا يفعلون ذلك أبداً فكان كما سجل إذن فالتحدى متواتر وعجز المتحدين أيضاً متواتر بشهادة التاريخ إذ طالت مدتهم فى الكفر ولم يقيموا الدليل على أنهم غير عاجزين وما استطاعوا الإتيان بسورة مثله ثم تراهم عدلوا إلى المقاومة بالسيف والقوة .

فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر

(١) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤

هذه الآيات المتحدى بها وسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيهم عليها[1]، هذا أولا.

أما ثانياً: فإنه من المعلوم كذلك أن العلماء لاخلاف بينهم فى أن كتاب الله معجز بيد أنهم اختلفوا فى كون التحدى بالقرآن هل وقع بالكلام النفسى القديم أم أنه وقع بالنظم وذلك على مذهبين:

أولهما: قائل بأن التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة الذات وأن العرب كلفت فى ذلك ما لا تطيق وفيه وقع عجزها. وهذا ما عليه قلة.

ثانيهما: إن التحدى إنما هو واقع بالألفاظ الدالة على القديم وهو ما عليه الجمهور[2].

أقول ما ذهب إليه الجمهور هو الحق الحقيق بالاعتبار ولا يلتفت إلى ما ذهب إليه غيرهم لأنه ساقط عن درجة الاعتبار بالكلية وذلك لأن الكلام القديم الذى هو صفة ذات، مما لا يمكن الوقوف عليه ومما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدى به.

قال السيوطى فى الإتقان: (.. وقد خاض الناس فى ذلك كثيراً فبين محسن ومسىء فزعم قوم أن التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة الذات وأن العرب كلفت فى ذلك مالا يطاق وبه وقع عجزها وهو مردود لأن مالا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدى به والصواب ما قاله الجمهور أنه واقع بالدال على القديم وهو الألفاظ، ا.هـ المقصود منه[3]

(١) مقدمة تفسير ابن عاشور جـ ١ ص ١٠٦

(٢) البرهان للزركشى بتصرف وايضاح جـ ٢ ص ٩٣

(٣) ج ٢ ص ١١٨

ومن ثم نرى الأصوليين والفقهاء وأهل اللغة حينما يحدون القرآن إنما ينظرون إليه باعتبار اللفظ المنزل الذى هو الأرقام المنقوشه والألفاظ المنطوقة[1].

وإنما عنى الأصوليون والفقهاء بإطلاق القرآن على الكلام اللفظى لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام وهو لا يكون إلا بالألفاظ.

وكذلك علماء العربية يعنيهم أمر الإعجاز فلا جرم كانت وجهتهم الألفاظ.

وكذلك المتكلمون يعنون أيضا بتقرير وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة ومنها القرآن وبإثبات نبوة الرسول ﷺ بمعجزة القرآن وبدهى أن ذلك كله مناطه الألفاظ[2].

إذا تمهد لك هذا فإنه يحسن بنا أن نقف على تعريف الأصوليين والفقهاء وكذلك المتكلمين باعتبار اشتراكهم جميعاً فى هذا القدر المتفق عليه من كون القرآن لفظاً منطوقاً أو رقماً منقوشاً مقولا على ذلك المكتوب بين دفتى المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس.

أما عبارة الأصوليين والفقهاء فخير من يمثلها كلام ابن السبكى فى جمع الجوامع والمحلى عليه وذلك حيث قالا عليهما الرحمة: « الكتاب القرآن غلب عليه من بين الكتب فى عرف أهل الشرع والمعنى به أى القرآن هنا أى فى أصول الفقه اللفظ المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته يعنى ما يصدق عليه هذا من أول سورة الحمد لله رب العالمين إلى

(١) هذان الاعتباران لم يختلف فى أمر أيهما اثنان من أهل الإسلام وإنما خلافهم فيما وراء ذلك

(٢) أفدت هذا من مناهل العرفان جـ ١ ص ١٠

آخر سورة الناس المحتج بأبعاضه خلاف المعنى بالقرآن فى أصول الدين عن مدلول ذلك القائم بذاته تعالى .

والإعجاز أى إظهار صدق النبى ﷺ فى دعواه الرسالة مجازاً عن إظهار عجز المرسل إليهم من معارضته .

والاقتصار على الإعجاز وإن أنزل القرآن ، لغيره أيضاً لأنه المحتاج إليه فى التمييز ، وقوله : « بسورة منه » أى أى سورة كانت من جميع سور القرآن حكاية لأقل ما وقع به الإعجاز الصادق بالكوثر أقصر سورة أو مثلها فيه قدرها من غيرها بخلاف ما دونها وفائدته : دفع إيهام العبارة بدونه أن الإعجاز بكل القرآن فقط » ا . هـ[1] المقصود منه .

فها أنت ذا ترى معى أيها القارىء الكريم أن غرض الأصولى فى بحثه هو الاستدلال على الأحكام الشرعية وهذا لا يكون إلا بالفاظ .

---

(١) (١/٢٢٣ — ٢٢٧) وراجع معه حاشية المطيعى (٢/٥) وفواتح الرحموت (٢/٧) ومختصر ابن الحاجب (٢/١٨) ، فهؤلاء جميعاً عرفوا القرآن « بأنه اللفظ المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه اللهم إلا ماخالف به ابن الحاجب عامتهم فى إيثاره التعبير فى تعريف القرآن بقوله: (هو الكلام المنزل) إلخ .

والحق أن ما ذهب إليه ابن الحاجب فى إيثاره للكلام على « اللفظ » هو الأولى بالقبول .

لأن (الكلام) فى التعريف جنس أو كالجنس يخرج عنه ما ليس بقول ولا كلام كالألفاظ المهملة .

ولعل السر فى إيثار (الكلام) على اللفظ فى التعريف أن اللفظ — كما يقول شيخنا ا . د / إبراهيم خليفه — هو من الجنس البعيد الصادق بالمهمل الذى لامعنى له والذى لايدخل شىء منه فى مفردات القرآن =

كذلك ترى معى أنهم اعتبروا « الإعجاز » قيداً فى التعريف لأن معنى الإعجاز عندهم هو ارتقاء القرآن إلى حد خارج عن طوق البشر حيث أعجزهم عن معارضته[1] .

بل ترى معى كذلك أنهم أوقفونا على القدر المعجز منه حيث حدوه بسورة منه أو قدرها كما سبق لك فى النقل الآنف من كلام ابن السبكى والمحلى عليه .

قال البنانى فى حواشيه مجلياً الأمر فى هذا القدر المعجز من القرآن وشارحاً ومعقباً على مقولة الجلال — (قوله حكاية لأقل إلخ) .

خبر عن قوله : وقوله بسورة إنما كان أقل لأن الإعجاز وقع بالقرآن كله بقوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن) الآية[2] .

= ولا تراكيبه صدقه على المستعمل الذى له معنى مفيد والذى تتألف منه مفردات القرآن وتراكيبه .

على حين أن كلا من القول أو الكلام إنما هو من الجنس القريب الذى لايقال إلا على خصوص اللفظ المستعمل والذى عرفت أن القرآن لايأتلف إلا منه .

وقد قال أهل المنطق : أن أخذ الأجناس (القريبة فى التعريفات أولى من أخذ الأجناس) البعيدة فيها فمن ثم كان إيثار ابن الحاجب فى المختصر « للكلام » فى التعريف على « اللفظ » أولى من صنيع غيره من الأصوليين » راجع منة المنان يتصرف مناج ١/٤٤ فتدبه لهذه الدقيقة والله يتولى هدانا وهداك .

(١) راجع : تيسير التحرير (٣/٤) ، نهاية السول (٢/٤) .

(٢) سورة الإسراء : آية (٨٨) .

وبعشر سور منه بقوله تعالى : (قل فأتوا بعشر سور مثله)[1] .

وبسورة منه بقوله تعالى : (فأتوا بسورة)[2] .

والسورة أقل الأمور الثلاثة التى وقع الإعجاز بها وهى أعم من الكوثر وصادقة بها ولم يقع الإعجاز بخصوص الكوثر .

قال : (قوله ومثلها فيه قدرها) أى ومثل الكوثر فى الإعجاز قدرها من غيرها أى قدرها فى عدد الآيات لا فى عدد الحروف الصادق بآيتين وبآية وبدونها ليوافق قولهم الإعجاز إنما يقع بثلاث آيات وذلك قدر سورة قصيرة قاله شيخ الإسلام ، ا . هـ ، المقصود من كلامه[3] .

---

(٣) سورة هود : آية (١٣) .

(١) سورة يونس : آية (٣٨) .

(٢) راجع حاشية البنانى (٢٢٦/١) .

على أنا ننبهك فى هذا المقام أن ثمة اختلافاً بين العلماء فى القدر الذى يتحقق به الإعجاز وليس هذا القول الذى ذكرناه لك هو القول الأوحد فى القدر المعجز بل هناك طائفة من الأقوال تدل على الاختلاف الواقع بين العلماء منها :

أولا : القول الذى سقناه بين يديك وهو ماعليه جمهور الأصوليين والبيانيين وهو الذى ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى ونصره القاضى الباقلانى أتم نصر .

وإن كان قد خالفهم فى قدر السورة فإذا كان الأصوليون والبيانيون قد قضوا بأن قدر السورة لا يتحقق إلا بمقدار ثلاث آيات حتى ولو كانت قصيرة كآيات سورة الكوثر مثلا ولا يقولون بتحقق الإعجاز بأقل من =

. . . . . .

= من ذلك فإن القاضى أبا بكر الباقلانى يرى أن قدر السورة يتحقق لو بآية مادامت هذه الآية بقدر حروف سورة وإن كانت كسورة الكوثر .

ثانياً : وذهب بعض المعتزلة إلى أن القدر المعجز متعلق بجميع القرآن لكن قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) يرد هذا القول .

ثالثاً : وقال قوم لايحصل الإعجاز بآية بل يشترط الآيات الكثيرة

رابعاً : وقال آخرون : يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) .

قال القاضى أبو بكر : ولادلالة فى الآية لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة . راجع فى كل هذا إعجاز القرآن للباقلانى ج ٢ ص ١٥١ — ١٥٢ والإتقان (١٢٣/٢)

بل ذهب البعض إلى أن الحرف الواحد من حروف القرآن معجز كما نقل ذلك شيخنا ا . د / عبد الغفور مصطفى عن الشيخ النورسى فقال تحت عنوان القدر المعجز : قال النورسى :(تحقق عندى أنه ليس القرآن كله معجزة بل كل سورة من سورة معجزة ، وكل آية من آياته معجزة بل حتى كل كلمة فيه بحكم معجزة .. وقال «ليست آيات القرآن ولا كلماتها معجزة وحدها وإنما كذلك حروف القرآن .

قال شيخنا . ا . د / عبد الغفور محمود مصطفى معقباً على مقولة النورسى : « وأقول من البدهى أن النورسى لايقصد حرفاً مقطوعاً عما حوله أو كلمة بدون مراعاة ماحولها بل المقصود مايتولد من المعانى ومايوجد من أحكام مناسبة الكلمة للموضوع فلا يمكن أن يقوم غيرها مقامها وأن تكون تلك المعانى بحيث لايتأتى إجتماع مثلها فى كلام بشر . =

والناظر فى هذا القيد الذى أبان عن القدر الذى يتحقق به الإعجاز وهو قولهم فى تعريف القرآن بعد قولهم للإعجاز (بسورة منه) يرى أنه قد أفاد جملة فوائد لا فائدة واحدة .

الفائدة الأولى : بيان أن الإعجـــاز والتحدى لم يقف الأمر به عند القرآن كله كما فى آية الإسراء : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

ولا عند عشر سور منه كما فى آية هود (أم يقولون افتراه كل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من استطعتم من دون الله كنتم قل صادقين) بل انتهى عند الإكتفاء بسورة واحدة وأطلق هذه السورة حيناً حيث

= ومن المعلوم أن تبديل كلمة بكلمة فى كلام البشر لا يؤثر كثيراً — أولا يؤثر بتاتاً أحياناً — على المعنى ومايتبعه .

فإذا تحصلنا على قدر من المعانى لا يتأتى مثله للبشر فالكلمات التى اشتملت عليه معجزة قلت أو كثرت ، وكذا المعانى الاشارية فى الحرف الواحد بما أحيط به من كلمات ومادار فى سياقه من المعانى المشار إليها ، راجع مداس ومناهج ص ١٢٥ — ١٢٦

والحق : أن ماذهب إليه الأصوليون والبيانيون وغيرهم من المحققين من القول بأن القدر الذى يتحقق به الإعجاز هو السورة طويلة كانت أو قصيرة حتى ولو كانت كسورة الكوثر مثلا أو قدرها وهو مقدار ثلاث آيات حتى ولو كانت قصيرة كآيات سورة الكوثر مثلا هو الأولى بالقبول مع الإيمان التام والاعتقاد الجازم بأن الجميع يعتقدون ويعرفون أن الحرف الواحد كالميم من (بسم الله) قرآن يكفر منكره وأن المجموع الذى صدق عليه اسم الجنس لايصح سلب القرآنية عن حرف منه بل انكار حرف واحد منه - كما قلنا - كفر والله أعلم .

ذكرها نكرة فى سياق الإثبات فحسب كما فى آية يونس (أم يقولون أفتراه قل فأتوا بسورة مثله) وعممها حيناً آخر حيث جاء بها نكرة فى سياق الشرط كما فى آية البقرة (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) ليدل إطلاقها على صدقها بأى سورة كانت ولو أقصر سورة كالكوثر وليدل عمومها كذلك على اندراج كل فرد من أفراد السور تحت هذا العموم ولو كان هذا الفرد أقصر سورة كالكوثر كذلك ومثل السورة قدرها فى عدد الآيات لا فى عدد الحروف ولايدخل فى هذا القـــدر البسملة ....

الفائدة الثانية : أن إطلاق السورة هنا بحيث تصدق بأى سورة كانت يفهم أن المراد من القرآن المعرف هو المجموع الشخصى الذى لا يقال إلا على كل القرآن دفعة واحدة ، وأن هذا هو الظاهر حسبما تفهمه عبارة الأشياخ عليهم الرحمة .

الفائدة الثالثة : أن ذكر السورة هناء جاء لدفع توهم قد يقع لبعض الجاهلين بشئون القرآن فيحسبون أن الإعجاز لا يكون إلا بأكثر من نحو سورة الكوثر مثلا ، ا . هـ [1] المقصود من كلام الأصوليين .

أما المتكلمون فهم يرون كذلك — كغيرهم — أن الإعجـــاز متعلق بالنظم الشريف الدال على الكلام القديم القائم بذات الله تعالى .

وذلكم لأن الكلام اللفظى عند البشر هو المؤثر فى قطع البشر وجزمهم بوجود كلام قديم قائم بالذات الأقدس لا اطلاع للبشر عليه.

---

(١) راجع : منة المنان لشيخنا . ا . د/ إبراهيم خليفة (١/٥١—٥٢) .

والكلام النفسى القديم عند البشر هو الأثر الناتج من قطعهم بوجود الكلام اللفظى إذ لولاه لما علم البشر بوجود الكلام النفسى[1].

قال العلامة السعد التفتازانى ما مفاده : (إن إطلاق كلام الله تعالى على هذا الكلام اللفظى المنتظم من الحروف المسموعة إنما هى لدلالته على الكلام القديم . لكن ثمة أموراً أخرى — كما يقول السعد — تدعم إختصاص الكلام اللفظى بالله تعالى فلقد أخبر الله تعالى عنه بأنه أوجد أشكاله فى اللوح المحفوظ كما قال عز من قائل (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ)[2] .

وأنسه أوجد الأصوات المتعلقة به على لسان الملك الكريم (إنه لقول رسول كريم[3])[4] اهـ .

قلت : وهـذا الذى قال به العلامة السعد هو الذى سبقه به القاضى الباقلانى وذلك حيث قال طيب الله ثراه : (فالله تعالى قد علم جبريل النظم العربى الذى هو قراءته وعلمها جبريل للنبى ﷺ وعلمها النبى ﷺ لأصحابه »[5] اهـ .

فالحاصل أن المتكلمين فرقوا بين النظم اللفظى الذى هو متعلق الإعجاز — وبين الكلام النفسى القديم الذى هو مدلول عليه بالكلام اللفظى الحادث ومن المتقرر عندهم أن ما أثبتوه معجزة لم يثبتوا له قدماً إذ المعجزة تتعلق بالنظم اللفظى الحادث الدال على الكلام النفسى القديم .

---

(١) راجع : هوامش على العقيدة النظامية لشيخنا . ا . د/ محمد عبد الفضيل القوصى ص ٣٣٣

(٢) سورة البروج آية ٢١ ، ٢٢

(٣) سورة التكوير آية ١٩

(٤) شرح المقاصد (٧٦/٢) .

(٥) الإنصاف ص ٩٨

ومن ثم ترى الآمدى رحمه الله يقرر أن مايقول به أهل السنة والجماعة من كون النظم اللفظى الحادث متعلقا للمعجزة ليس بقديم وهذا هو عين ما يقول به المعتزلة لكن المعتزلة يخالفون أهل السنة فى كون هذا النظم اللفظى دالا على المعنى النفسى القديم لأن المعتزلة كما هو معروف من مذهبهم لا يثبتون لله كلاماً نفسياً قديماً البتة .

قال الآمدى عليه الرحمـة : (فما أثبتوه معجزة فلا نثبت له القدم وما أثبتنا له القدم لا يثبتونه)[1] اهـ .

ويمثل هذه المقولة قال الرازى طيب الله ثراه : (الذى يقول به المعتزلة[2] فنحن نقول به من حيث المعنى والذى نقول به[3] فهم لا يقولونه البتة)[4] .

ولله در أمام الحرمين الجوينى وذلك حيث يقول مبيناً أن الإعجاز لا يتعلق بالصفة القديمة وإنما هى فعل لله تعالى: (..ثم اعلموا أن المعجزة لها أوصاف تتعين الإحاطة بها منها أن تكون فعلا لله تعالى فلا يجوز أن تكون المعجزة صفة قديمة إذ لا اختصاص للصفة القديمة ببعض المتحدين دون بعض ولو كانت الصفة القديمة معجزة لكان وجود البارى

---

(١) راجع غاية المرام ص ١٠٨

(٢) وهو أن الله تعالى خلق الحروف والأصوات الدالة على المعانى المقصودة .

(٣) أى أهل السنة وهو أن لله تعالى كلاماً نفسياً قديماً دل عليه النظم اللفظى الحادث .

(٤) المحصل ص ١٨٤ ، وراجع معه هوامش على العقيدة النظامية ص ٣٣٠

تعالى معجزاً وإنما المعجز فعل من أفعال الله تعالى نازل منزلة قوله لمدعى النبوة : صدقت »[1] اهـ .

ومن ثم — تستطيع أن تجزم معى أيها القارىء الكريم أن الإعجاز أمر يتعلق بالنظم اللفظى الدال على الكلام القديم الذى هو صفة الذات وهذا هو الحق الحقيق بالاعتبار .

ولا يلتفت إلى القول القائل بأن الإعجاز بالكلام القديم الذى هو صفة الذات إذ لا يمكن الوقوف عليه وما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور بحال من الأحوال التحدى به والله أعلم .

وأما ثالثاً : فإنا ننبهك أيها القارىء الكريم على أمر مهم له أوثق الصلات بحقيقة الإعجاز وهو أن التعجيز ليس مقصوداً لذاته بل المقصود لازمه وهو إثبات أن سيدنا محمداً ﷺ مرسل من ربه وأن القرآن الكريم الذى هو معجزته — قد أنزل عليه من لدنه خالصاً نقياً لم تشبه شائبة من كلام البشر ولا من كلام غيرهم ، وكذلك الشأن فى كل معجزات الأنبياء ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز ، ولكن لازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر لحكمة عالية وهى إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه فى الدنيا والآخرة »[2] اهـ .

---

(١) الإرشاد ص ٣٠٨ بتحقيق ا . د / محمد يوسف موسى .

(٢) راجع : مناهل العرفان (٢٢٧/٢) وانظر معه مذكرة فى إعجاز القرآن الكريم للشيخ عبد الرحيم فرغلى البلينى — رحمه الله ص٢٠١ط ، بالآلة الكاتبة ومسحوب على استنسل — وكتاب إعجاز القرآن =

وأما رابعاً : فهناك قدر محكم من الكلام فى تحقيق الإعجاز للحافظ السيوطى طيب الله ثراه — فالآن نكلك إلى قلبه المطواع فاشدد بهذا القدر الطيب يديك واصبر على طوله واستفاضته فى تحقيق هذا الأمر فإنه نفيس قال عليه الرحمة عند حديثه عن النوع الرابع والستين فى إعجاز القرآن بعد تعريفه للمعجزة وبيان أقسامها وكون معجزة القرآن الكريم عقلية لا حسية : [ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك قال تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[1] فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة إلا وهو معجزة ، وقال تعالى [وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم][2] .

فأخبر أن الكتاب آية من آياته كانت فى الدلالة قائم مقام معجزات غيره ، وآيات من سواه من الأنبياء ، ولما جاء به النبى ﷺ إليهم وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء وتحداهم على أن يأتوا بمثله وأوهلهم طول السنين فلم يقدروا كما قال تعالى (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)[3] .

ثم تحداهم بعشر سور منه فى قوله تعالى (أم يقولون افتراه قل فأتوا

= للدكتور الشيخ السيد محمد الحكيم ص ٤٠ — ٤١ ط دار التأليف وانظر مدارس ومناهج فى تفسير القرآن الكريم لشيخنا ا.د/عبد الغفور محمود مصطفى ص ١٢٤

(١) سورة التوبة آية (٦) .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الطور (٣٤) .

بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله »(١)

ثم تحداهم بسورة فى قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله »(٢) .

ثم كرر فى قوله « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا عبدنا فأتوا بسورة من مثله »(٣) فلما عجزوا عن معارضته والإيتان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٤)

فهذا وهم الفصحاء اللد وقد كانوا أحرص شىء على إطفاء نوره وإخفاء أمره ، فلو كان فى مقدراتهم معارضته لعدلوا إليها قطعاً للحجة ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشىء من ذلك ولا رامه بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى فتارة قالوا سحر وتارة قالوا شعر .

وتارة قالوا أساطير الأولين كل ذلك من التحير والانقطاع ثم رضوا بتحكيم السيف فى أعناقهم وسبى ذراريهم وحرمهم واستباحة أموالهم وقد كانوا آنف شىء وأشده حمية فلو علموا أن الإيتان بمثله فى قدرتهم لبادروا إليه لأنه كان أهون عليهم .

---

(١) سورة هود آية ١٣ ، ١٤

(٢) سورة يونس ٣٨

(٣) سورة البقرة سبق تخريج الآية

(٤) سورة الإسراء آية ٨٨

كيف وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس قال جاء الوليد بن المغيرة إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه لئلا تأتى محمداً لتعرض لما قاله. قال قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له . قال وماذا أقول؟ فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله مايشبه الذى نقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ماتحته . قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعنى حتى أفكر فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره »(١) أ. هـ(٢) المقصود منه .

قلت : كلام الجلال السيوطى فى هذا المقام كلام جيد بلغ الغاية فى جودته ونفاسته وإصابة وجه الحق فى تقرير حقيقة الإعجاز فى القرآن الذى هو معجزة نبينا الخالدة والتى تحدى بها النبى ﷺ بلغاء قومه وفصحائهم ودعاهم إلى مقارعة الحجة بالحجة لكنهم مع كثرتهم وشهرتهم عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان وآثروا المقارعة بالسيوف وبذل المهج والأرواح وفى هذا ما فيه من ركبهم لمتن الشطط فخبرنى بربك لو كان القوم قد قدروا على المعارضة بالحجة أكانوا تاركين

---

(١) فى المستدرك ك التفسير ب تفسير سورة المدثر قوله تعالى : « فذرنى ومن خلقت وحيداً » وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخارى ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وراجع فى مثل هذه الشهادة لعتبة بن ربيعة وغيره من أمثال ابن شريف وأبى سفيان وأبى جهل من كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير جـ ٣ ص ٦٠ : ٦٥ ط دار الفكر .

(٢) راجع : الإتقان جـ ٢ ص ١١٧

لها ؟ كلا وألف كلاما ينبغى لهم أن يتركوها لو قدروا عليها وأنى لهم ذلك.

إن العاقل لا يستطيع أن يجيب إلا بأن القوم عجزوا عن المعارضة عجزاً جعلهم يؤثرون قرع السيوف عليها ، ولله در حجة الإسلام الغزالى فإنه وفق إلى ماقلناه توفيقا حسناً لانرى معه بأساً فى إيراد كلمته المفيدة على وجازتها لتكون دليل صدق وبرهان رشد على ماقلناه قال عليه سحائب الرحمة . (لايمكن اقتدار العرب على طريق الفصاحة ولا يمكن إنكار حرصهم على دفع نبوته بكل ممكن حماية لدينهم ودمهم ومالهم وتخلصا من سطوة المسلمين وقهرهم ولايمكن إنكار عجزهم لأنهم لو قدروا لفعلوا ، فإن العادة قاضية بالضرورة بأن القادر على دفع الهلاك عن نفسه يشتغل بدفعه ولو فعلوا لظهر ذلك ونقل) أ . هـ[1]

أرأيت معى يرحمك الله كيف ان الإعجاز القرآنى بات حقيقة ثابتة بثبوت السماء لاريب فيها . . . ؟؟!

العرب فى كل عصر وغير العرب فى كل جيل لم يعارضوا القرآن الكريم لم يقدروا على المعارضة . . لم يأت أحد منهم بشىء قليل أو كثير يقف فى بلاغته أمام بلاغة القرآن الحكيم وأنى لهم ذلك ، وكيف يقدرون على مثل هذه البلاغة التى هى فوق طاقتهم ؟ . . لماذا ؟ لأنها بلاغة الخالق الأعظم الملك القادر والمدبر الحكيم .

أجل إن القرآن أسلوب صيغ من حكمة ومزج بالهداية ، نظم رائع وألفاظ عبقرية حسان ، ومعان مفضلة مسترقة كأنها الجان حينما نطق به النبى العربى المحمد - ﷺ - بهر العرب بلاغته وأعجزتهم فصاحته وحكمته .

(١) راجع الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٠١ .

وماذا يقول القائلون فى كتاب الله الذى تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك فى منظر بهيج ومعرض رشيق ونظم غير متعاص على الأسماع ولا ملتو على الأفهام ولامستكره من اللفظ يمر كما يمر السهم ويضوء كما يضىء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العباب ، جموح على الطارق المنثاب ، كالروح فى البدن ، والنور المسيطر فى الأفق والغيث الشامل والضياء الباهر ، « لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد » وصدق الله العظيم « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »[1] .

والله أعلم

(١) الآية الأولى من سورة الفرقان وانتفعت فى هذا المقام بكلام شيخنا : أ . د محمد عبد المنعم خفاجى أطال الله بقاءه فارجع إلى كتابه (الإسلام دين الإنسانية ص ٩٠ ط دار الطباعة المحمدية . ط بدون تاريخ .

المبحث الثانى

أوجه إعجاز القرآن

من ينعم النظر ويمعن الفكرة فى كتاب الله عز وجل يرى أنه الكتاب الوحيد الذى لايستطيع أى باحث أن يلم بوجوه إعجازه كلها ولا بأكثرها ولا يمكن أن يخطر ببال أحد من الباحثين فى أسرار كتاب الله عز وجل أنه أحاط بذلك كله لأنه لايحيط بكلام الله إلا الله .

فأنت إذا تأملت قضية وجوه الإعجاز القرآنى فلم ترغرضاً — كما يقول الشيخ ابن عاشور عليه الرحمة — تناضلت له سهام الأفهام ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى واقتنعت بما بلغته من صبابة نزراً . مثل الخوض فى وجوه إعجاز القرآن فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل وموردها المعلول والناهل . . . ولقد سبق أن ألف علم البلاغة مشتملا على نماذج من وجوه إعجازه والتفرقة بين حقيقته ومجازه إلا أنه باحث عن خصائص الكلام العربى البليغ ليكون معياراً للنقد أو آلة للصنع ثم ليظهر من جراء ذلك كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التى لاتجتمع فى كلام آخر للبلغاء حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان بمثله[1] .

قال الإمام السكاكى فى المفتاح : (واعلم أنى مهدت لك فى هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها واعترف لك بكمال الحذق فى البلاغة ابناؤها . . . إلى أن قال عليه الرحمة : (ثم إذا كنت ممن ملك

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ١٠١ .

الذوق وتصفحت كلام رب العزة أطلعتك على مايوردك موارد العزة وكشفت لنور بصيرتك عن وجه إعجازه القناع) أ . هـ المقصود منه[1] .

هذا . . . وطوائف الأمة تجاه هذه القضية فريقان .

أحدهما : قائل بأن إعجاز القرآن بالصرفة بمعنى أن الله صرف همم المتحدين بالقرآن عن معارضته مع قدرتهم عليها وذلك بأمور ثلاثة :

الأمر الأول : أن الله سلب قدرهم .

الأمر الثانى : أن الله سلب دواعيهم عن المعارضة .

الأمر الثالث : أن الله سلبهم العلوم التى لابد منها فى الإتيان بمثل القرآن .

بمعنى أنها لم تكن حاصلة لهم أو بمعنى أنها كانت حاصلة فأزالها الله وهذا هو المختار عند المرتضى من الشيعة وذهب إليه النظام وكثير من المعتزلة[2] . وكذلك قال به أبو اسحاق الاسفرايينى من الأشاعرة[3] . والإمام محمد بن حزم الظاهرى كما صرح بذلك فى كتابه الفصل فى الملل والنحل[4] .

(١) مفتاح العلوم ص ٢٦٩ باختصار .

(٢) راجع : المقاصد ج ٢ ص ١٣٥ .

(٣) راجع المواقف وشروحه وذلك حيث قال وهو يحكى الأقوال فى الإعجاز) وقيل بالصرفة فقال الأستاذ والنظام . صرفهم الله مع قدرتهم وقال المرتضى : « بل سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة » ويفسر السيد الشريف الجرجانى كلمة الأستاذ بأنه أبو اسحاق الإسفرائينى . ج ٨ ص ٢٤٥ ط . مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧م .

(٤) راجع ج ٣ ص ١٧ ط . دار الفكر العربى ط . الأولى .

وهذا المذهب لانقف عنده طويلا لسقوطه عن درجة الاعتبار بالكلية وكفانا مؤنة الرد عليه وتفنيد مقولته أئمة مبرزون وأعلام محققون منهم : الشيخ ابن عطيه فى تفسيره وذلك حيث يقول : (وجه التحدى فى القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله قد أحاط بكل شىء علماء وأحاط بالكلام كله علماً فعلم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن محيطاً قط فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه .

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين ويظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ، ثم لاتزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد » أ هـ[1] .

ومنهم الإمام الخطابى رحمه الله وذلك حيث يقول : (وذهب قوم إلى أن العلة فى إعجازه — أى القرآن — الصرفة أى صرف الهمم عن المعارضة وإن كان مقدوراً عليها غير معجوز عنها إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجارى العادات صار كسائر المعجزات فقالوا — أى

(١) راجع . المحرر الوجيز ج ١ ص ٣٨ — ٣٩ ط المجلس العلمى بفاس ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م .

القائلون بالصرفة — ولو كان الله — عز وجل — بعث نبياً فى زمان النبوات وجعل معجزته فى تحريك يده أو مد رجله فى وقت قعوده بين ظهرانى قومه ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال : آيتى أن أحرك يدى أو أمد رجلى ولا يمكن أحد منكم أن يفعل مثل فعلى ... والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشىء من جوارحهم . . . ثم حرك يده أو مد رجله ثم راموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه — كان ذلك آية على صدقه — وليس فى المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبى ﷺ ولا إلى فخامة منظره وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجارى العادات ناقضاً لها فإذا كانت على هذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها .

ثم يقول رحمه الله : « وهذا أيضاً قريب — أى هذا التصوير للمعجزة — قريب من القول بالصرفة — ولكن دلالة الآية تشهد بخلافه وهى قوله تعالى : — (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[1]) فأشار سبحانه فى تلك المتحدية إلى أمر طريقه : التكلف والاجتهاد وسبيله : التأهب والاحتشاد والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة فدل على أن المراد غيرها والله أعلم » أ . هـ[2] .

وقد شدد فى التعنيف عليهم فى هذا المقام الأستاذ الرافعى وذلك حيث يقول : (وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه لكان ذلك مذهباً من تخاليطهم فى بعض ما يحاولونه إذ عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا . . وعلى الجملة

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨

(٢) راجع رسالة بيان إعجاز القرآن نقلا عن إعجاز القرآن وتطور وجوه إعجازه ص ١٠٨ .

فإن القول بالصرفة لايختلف عن قول العرب فيه (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر)[1] وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضرباً من العمى : (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون)[2] فاعتبر ذلك بعضه ببعض فهو كالشيء الواحد ، أ . هـ[3] بتصرف وحذف .

هذا ما يتعلق بأول الفريقين وإيراد شبهته وتفنيد العلماء لها

الفريق الثاني : وهم جمهور العلماء

إذا كان الأولون قاضين بأن إعجاز القرآن كان بالصرفة سواء كانت الصرفة أن سلب الله قدر المتحدين أو سلب دواعيهم عن المعارضة له أو سلبهم العلوم التي لابد منها في الإتيان بمثل القرآن — وقد علمت ما فيه —

أقول : إذا كان هؤلاء قد قضوا بذلك فإن جمهرة العلماء قاضون بأن إعجاز القرآن لكونه في الطبقة العليا من الفصاحة والدرجة القصوى من البلاغة على ما يعرفه فصحاء العرب بسليقتهم وعلماء الفرق بمهارتهم في فن البيان وإحاطتهم بأساليب الكلام .

هذا ومع اشتماله على الأخبار من المغيبات الماضية والآتية وعلى دقائق العلوم الإلهية وأحوال المبدأ والمعاد ومكارم الأخلاق والإرشاد

(١) سورة المدثر : ٢٤

(٢) سورة الطور آية (١٥)

(٣) إعجاز القرآن البلاغة النبوية ص ١٦٣ — ١٦٤ تحقيق محمد سعيد العريان ط . المكتبة التجارية بمصر .

إلى فنون الحكمة العلمية والمصالح الدينية والدنيوية على ما يظهر للمتدبرين ويتجلى على المتفكرين[1] .

قلت : وماذهب إليه الجمهور هو الأولى بالصواب ولا عبرة بمخالفه لفساده وخرقه للإجماع ولعدم استحالة الكشف والتنقيب على أوجه إعجازه .

ومن ثم رأينا العلماء قد اشتغلوا بقضية الإعجاز وكتبت فيها المؤلفات العديدة ولا يتأتى ذلك منهم إلا لإيمانهم الذي لاتزعزعه العواصف بأن القرآن الكريم مأدبة الله للعالمين وهو معين لاينضب وأن فيه من الإعجاز البياني والعلمي والتشريعي وغير ذلك ما صح معه وصف من أنزل عليه — ﷺ — إذ وصفه فيما وصفه فقال : (ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد)[2] .

ولإيمانهم كذلك بأن القرآن لايزال كتاب كل عقل ورسولا هادياً وداعياً إلى الله كل ذي لب ، ومع علوه الذي لانهاية له لايزال قريباً من كل إنسان يعيش في الناس ويفهم عنهم ويفهمون عنه .

وهذا قدر متفق عليه بينهم جميعاً لكنهم اختلفوا فيما وراء ذلك من حيث حصرهم لأوجه إعجازه وهم في هذا المقام ما بين مكثر ومقل .

والناظر في مصنفات القوم يرى هذا التفاوت واضحاً جلياً .

فإن الإمام الزركشي عليه الرحمة يرى أن أوجه إعجازه بلغ بها العلماء اثني عشر وجهاً فيذكرها ثم تراه بعد ذلك يرجح آخرها ويبين أنه قول

(١) شرح المقاصد ج ٢/١٣٥

(٢) بعض من حديث رواه الترمذي والدارمي وغيرهما عن علي ابن أبي طالب مرفوعاً وهو حديث حسن على أصح الأقوال .

أهل التحقيق وهو كون الإعجاز القرآنى وقع بجميع ما سبق من الأقوال مجتمعة لا بكل واحد على انفراد[1] .

على حين ترى الحافظ السيوطى قد بلغ بأوجه إعجازه خمسة وثلاثين وجها ... كما فى معترك الأقران[2] .

وإن كنا قد لاحظنا عليه أنه أقتصر فى إتقانه[3] على ما أورده الزركشى فى برهانه بل عقب عليه بكلام صاحب الشفاء الذى لم يرتض من من أوجه الإعجاز سوى أربعة واعتبر غيرها من قبيل خواص القرآن وفضائله وسيأتيك تعقيبنا عليه فانتظره فى حينه إن شاء الله تعالى .

— وبلغ بها بعض الباحثين خمسة وسبعين وجها حيث ذكر الدكتور أحمد عز الدين عبد الله خلف الله فى كتابه « القرآن يتحدى » أربعين وجها فوق ما نقله عن الحافظ السيوطى فى معترك الأقران[4] .

---

(١) راجع البرهان ج ٢ ص ٩٣ — ١٠٧

(٢) راجع الجزء الأول فقد استغرقت الأوجه أغلبه .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٢٢ — ١٢٣

وقد ذكر صاحب المناهل أربعة عشر وجها معتبرة ثم ذكر أوجها معلولة أخرى وبمقارنتها لما ذكره القرطبى فى مقدمة تفسيره ج ١ ص ٦٩ و ٧٥ وجدتها هى بعينها فشيخ الأشياخ الزرقانى ذكر أوجه القرطبى تحت عنوان « وجوه معلولة » وأبان بأنها لاتسلم فى نظره من طعن طاعن حيث إن منها ما هو متداخل بعضه فى بعض ومنها ما لا يجوز أن يكون وجها من وجوه إعجاز القرآن وساق تلك الأوجه منسوبة للقرطبى ثم أورد الرد عليها بما يفيد عدم ارتضائه لها راجع مناهل العرفان ج ٢ ص ٣٥٤ — إلى آخر الكتاب ، ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٤) راجع كتابه المذكور ص ٢٤٧ — ٢٤٩ ط دار السعادة .

بل إن بديع الزمان النورسى — عليه الرحمة — كما يقول شيخنا الأستاذ الدكتور / عبد الغفور محمود مصطفى — « بلغ بها مأتين من الوجوه »[1] .

هذا القدر هو الذى وقفنا عليه بعد اطلاعنا على كلام العلماء فى جانب المكثرين لعد أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم .

وإذا كان هؤلاء العلماء قد أكثروا فى عد وجوه الإعجاز فإن فريقاً آخر من العلماء قد أخذ جانب الإقلال من أمثال القاضى عياض فى الشفاء الذى لم يعتبر من الوجوه سوى أربعة وعد ما عداها من قبيل الخواص والفضائل وصار على دربه المحقق العلامة الألوسى طيب الله ثراه حيث اقتفى أثر القاضى ورضى مذهبه له مذهباً وطريقاً على حين ترى القاضى أبا بكر الباقلانى قد عد أوجه الإعجاز فى القرآن ثلاثة[2] .

ذكرها إجمالا ثم تكلم على هذه الأوجه الثلاثة بالتفصيل فى كتابه الذى ألفه فى هذا الشأن وهو « إعجاز القرآن » وهو سفر نفيس فى تلك القضية فارجع إليه إن شئت .

والتحقيق :

أن صنيع العلماء تجاه أوجه الإعجاز فى القرآن من حيث القلة والكثرة ومن حيث التقديم والتأخير فى ذكر هذه الأوجه يعود فيما يعود إليه من سبب تفاوت مداركهم فى التذوق الجمالى لمفرداته وتراكيبه ونظمه وأسلوبه وغير ذلك .

---

(١) راجع : مدارس ومناهج فى تفسير القرآنى الكريم لشيخنا ا . د / عبد الغفور مصطفى ص ١٢٩

(٢) راجع : إعجاز القرآن على هامش الإتقان ص ٤٧ فما بعدها .

مع إيماننا التام ويقيننا الصادق أن ما حصله هؤلاء العلماء الأعلام — قدست أسرارهم — من وجوه لإعجاز القرآن المجيد ليس لوجه منها فضل على الآخر لكونها جميعاً قد بلغت الذروة العليا فى البلاغة والفصاحة وبلغت الدرجة القصوى فى الحلاوة والطلاوة ومن ثم ترانا لانوافق القاضى عياض — طيب الله ثراه — ومن جرى على منواله كالعلامة الألوسى — نور الله ضريحه — على ماذهب إليه من كون الكثير من الأوجه التى ذكرها العلماء ليست من إعجاز القرآن فى شىء بل هى من خواص القرآن وفضائله وهاك عبارتهما التى صرحت بهذا القول الذى لانوافقهما عليه ولانرتضيه منهما بحال من الأحوال مع احترامنا لجلالة قدرهما .

قال القاضى عليه الرحمة بعد ذكره لكثير من الأوجه : (...والأوجه التى قبل هذا الوجه تعد فى خواصه وفضائله لا فى أعجازه وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة الأول فليعتمد عليها) ا . هـ (١) المقصود من كلامه .

وقال العلامة الألوسى فى مقدمة تفسيره : (وقد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن وأتوا بوجوه شتى الكثير منها خواصه وفضائله مثل الروعة التى تلحق قلوب سامعيه وأنه لا يمله تاليه بل يزداد حباً له بالترديد مع أن الكلام يعادى إذا أعيد وكونه آية باقية لاتعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه) ا . هـ (٢) المقصود من كلامه .

أقول : لا أوافق القاضى والعلامة على كلامهما بل الذى تطمئن إليه

(١) راجع الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ج ١ ص ١٦٩ فما بعدها والإتقان ج ٢ ص ١٢٣

(٢) راجع : روح المعانى ج ١ ص ٣١

النفس أن ما أعده الشيخان فى هذا المقام من قبيل خواص القرآن وفضائله هو عندى من أجل أوجه إعجازه وانكار مثله مكابرة وذلك لسببين :

أولهما : أن تلك الخواص وهاتيك الفضائل التى لم يعتبرها الشيخان من أوجه إعجازه — تدخل فى أوصاف القرآن فتدخل فى التحدى بمثله فتكون شرطاً فى صحة المعارضة .

ثم إنها فى كثرتها وسموها شىء لا نظير له ولا يقدر بشر على مثلها ومن ثم فهى من أوجه إعجازه قطعاً .

ثانيهما : لست أدرى كيف ألحق الشيخان الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم للقرآن والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته .

أقول : كيف ألحق الشيخان هذا الوجه بالخواص والفضائل ونسى الشيخان أو تناسيا أن أهل البلاغة والذوق الذين لهم باع طويل فى معرفة أوجه إعجازه قد نصوا على أن مثل هذا الصنيع بالقلوب والتأثير فى النفوس هو من أجل أوجه إعجازة وإن دق ذلك عن أعين الناظرين .

وإن رمت دليلا على صدق ماذهبنا إليه فأعر سمعك لمقولة هذا الإمام وهو واحد ممن كتبوا فى إعجاز القرآن ألا وهو الإمام الخطابى وذلك حيث يقول فى كتابه بيان إعجاز القرآن : (قلت فى إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك هو صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً أو منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ومن الروعة والمهابه فى أخرى — ما يخلص من القرآن إليه . . .

ثم يقول : تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا

أخذت حظها منه عادت مرتاعة وقد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب . يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها فكم من أعدو الرسول — ﷺ — من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا فى دينه » ا.هـ (١) .

وأخالك أيها القارىء الكريم بعد هذا النص من كلام الإمام الخطابى تقرر معى فى اطمئنان وثقة بالغتين حد اليقين أن الروعة التى تلحق قلوب السامعين للقرآن من أدخل أوجه الإعجاز فيه وأراك توافقنى كذلك فى عدم موافقتى لما ذهب إليه الشيخان من عدم اعتبار هذا الوجه من أوجه الإعجاز .

فالحق أن أوجه إعجازه كثيرة ومتعدده وتفصيلها لا يحصره المتأمل ومن ثم يحسن بنا أن نضبط لك معاقدها التى هى ملاكها فترى ملاك أوجه الإعجاز الكثيرة والمتعددة والتى لا يمكن لمتأمل أن يقفك على حصرها ومن ثم رأيت أختلاف العلماء فى عد هذه الأوجه مابين مكثر ومقل حتى بلغ بها بعضهم فى نثرتها مأتى وجه وبلغ بها بعضهم فى قلتها ثلاثة أوجه .

أقول ترى معى أن ملاك وجوه الإعجاز راجعاً إلى أربع جهات مع التنبه إلى أن هذه الجهات الأربع هى بمثابة المعاقد لغيرها من الأوجه الأخرى التى هى ملاكها فغيرها راجع إليها وداخل فيها لا أن غيرها ليس منها بل هو من خواص القرآن وفضائله كما ادعاه كل من القاضى عياض والألوسى والآن حان وقت الشروع فى بيان جهات الإعجاز الأربع والتى هى بمثابة المعاقد لغيرها — كما قد علمت — مع التأمل والنظر فيها

(١) راجع الإعجاز وتطور وجوه إعجازه ص ١٠٩

حسبما تتطلبه طبيعة البحث العلمى القائم على جادة الصواب والمتسم — إن شاء الله — بالحيدة والموضوعية .

« الجهة الأولى »

بيان إعجازه من حيث بلاغته

بلغ القرآن العظيم الدرجة القصوى والغاية العظمى فى البلاغة مما يمكن أن يبلغه الكلام العربى البليغ من حصول كيفيات فى نظمه مفيدة معانى دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة ، ومرجع هذا الوجه كما يقول العلامة ابن عاشور : « إلى ما يسمى بالطرف الأعلى من البلاغة والفصاحة وهو المصطلح على تسميته حد الإعجاز وحسبنا هنا الدليل الإجمالى وهو أن الله تعالى تحدى بلغائهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته اعترافاً بالحق وربثاً بأنفسهم عن التعويض بالنفس إلى الافتضاح مع أنهم أهل القدرة فى أفانين الكلام نظماً ونثراً وترغيباً وزجراً قد خصوا من بين الأمم بقوة الذهن وشدة الحافظة وفصاحة اللسان وتبيان المعانى فلا يستصعب عليهم سابق من المعانى ولا يجمح بهم عسير من المقامات »(١) أ.هـ المقصود منه .

وللقاضى عياض قدر طيب من الكلام فى هذا الوجه نجتزىء منه بعضه .

وذلك حيث يقول عليه الرحمة : (فلم يزل يقرعهم النبى ﷺ أشد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته يخادعون أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء وقولهم : إن هذا إلا سحر يؤثر — وسحر مستمر — وإفك افتراه — وأساطير الأولين — وقد

(١) راجع : مقدمة تفسير ابن عاشور ج ١ ص١٠٦ .

قال تعالى « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كسيلمة كشف عواره لجميعهم ولما سمع الوليد بن المغيرة قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان »[1] الآية . قال : « والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بكلام يشر »

---

(١) الآية رقم (٩٠) من سورة النحل . وروى أن أكثم بن صيفى حكيم العرب أرسل بنيه إلى النبى ﷺ يتعرف ما يدعو إليه فلما حضروا وسألوا النبى ﷺ تلا عليهم قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

فلما بلغه ما تلا عليهم رسول الله ﷺ قال : إنه إن لم يكن ديناً فهو خلق للناس وأمر حسن يا بنى كونوا فى هذا الأمر أولا ولا تكونوا آخراً » أ . هـ راجع خاتم النبيين (١ / ٦١١) قلت : حق لهذا الحكيم العربى أن يصدر هذا الحكم العادل الذى لا يجافى الفطرة بل يعضدها بكون ما استمعه أولاده من النبى ﷺ من كلام الله المنزل عليه إن لم يكن ديناً فكفى به خلقاً للناس وأمراً حسناً تستقيم به الحياة حيث العدل والخير والفضيله والبعد عن الرذيلة والفحشاء فما أجل أوامر الله ونواهيه !!

فبهذه الأوامر وهاتيك النواهى التى استقبلها النبى العربى المحمد والتى شهد ببلاغتها الأعداء قبل الأصدقاء .

أقول بهذا كله أدار النبى العربى المحمد المدينة الفاضلة التى قامت على حكم الله تعالى وأمره ونهيه فنفذت فيها النظم الإسلامية .

فلعمر الحق ان هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أصول التشريعات فى الشرائع السماوية .

وذكر أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلا يقرأ « فاصدع بما تؤمر »[1] فسجد وقال سجدت لفصاحته وكان موضع التأثير فى هذه الجملة هو كلمة « اصدع » فى إبانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها وكلمة « بما تؤمر » فى إيجازها وجمعها .

وسمع آخر رجلا يقرأ : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا »[2] قال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام » أ . هـ[3] بتصرف واختصار

قلت : وقوع التحدى من رسول الله ﷺ بالقرآن للعرب وكون العرب قد عجزوا عن المعارضة لهو مما شاع وذاع وملأ البقاع وأصبح معلوماً بالضرورة إجمالا وتصدى أهل البلاغة أعنى علمائها

= فإذا كانت شريعة التوراة — مثلا — عنيت بوضع المبادىء الأولية لقانون السلوك (لا تقتل) — (لا تسرق) إلخ فطابعها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة .

وشريعة الإنجيل تجىء بعدها تقرر هذه الأمور ثم تترقى فتزيد آداباً مكملة (أحسن إلى من أساء إليك) .

أقول إذا كانت الشريعتان كذلك فإن شريعة القرآن جاءت مقررة لكلا المبدأين فى نسق واحد تراهما فى قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) .

وحق لهذا الحكيم العربى كذلك أن يشحذهم بنيه للمسارعة فى الدخول فى هذا الدين أولا لا أن يكونوا فيه آخراً حتى يحظوا بهذا الشرف الذى ما بعده شرف . والله أعلم .

(١) سورة الحجر آية (٩٤)

(٢) سورة يوسف آية (٨٠)

(٣) راجع الشفاء ج ص ١٦٨ — ١٦٩

لتفصيل هذا الإجمال واجتزىء لك عبارة الإمام السكاكى ههنا لتكون لك برهاناً نيراً فى هذا المقام قال عليه الرحمة : (وأعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها أو كالملاحة ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا وطريق اكتساب الذوق طول خدمه هذين العلمين (المعانى والبيان) نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك أما نفس الإعجاز فلا »[1] أ . هـ .

ويشرح العلامة السعد التفتازانى عبارة صاحب المفتاح شرحاً به تتجلى لك حقيقة هذا الوجه من الإعجاز وتفهم به عبارة السكاكى فقال : (يعنى أن كل ما ندركه بعقولنا فى غالب الأمر نتمكن من التعبير عنه والإعجاز ليس كذلك لأنا نعلم قطعاً من كلام الله أنه بحيث لا يمكن للبشر معارضته والإيتان بمثله ولا يماثله شىء من كلام فصحاء العرب مع أن كلماته كلمات كلامهم وكذا هيئات تراكيبه كما أنا نجد كلاماً نعلم قطعاً أنه مستقيم الوزن دون آخر ، وكما أنا ندرك من أحد كون كل عضو منه كما ينبغى وآخر كذلك أو دون ذلك لكن فيه شىء نسميه الملاحة ولا نعرف أنه ما هو وليس مدرك الإعجاز عند المصنف سوى الذوق وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية فإن كان حاصلا بالفطرة فذاك وإن أريد اكتسابه فلا طريق إليه سوى الاعتناء بعلمى المعانى والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما وإن جمع بين الذوق الفطرى وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة »[2] أ . هـ المقصود من كلامه .

(١) راجع مفتاح العلوم ص ٢٢٧ الحلبى

(٢) راجع مقدمة التحرير والتنوير ج ١ ص ١٠٦ فما بعدها

قلت : وما ذهب إليه السكاكى من كون إدراك الإعجاز إنما يتأتى لمن له ذوق سواء كان هذا الذوق فطرياً أو مكتسباً عن طريق العناية بعلمى البيان والمعانى وطول ممارستهما كما أبانت عن ذلك كلمة السعد التفتازانى .

أقول ما ذهب إليه السكاكى وشارحه هو الذى ارتضاه العلامة ابن خلدون وذلك حيث يقول : « وأعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هو فهم الإعجاز فى القرآن . . . وهذا هو الإعجاز الذى تقصر الأفهام عن إدراكه وانما يدرك بعض الشىء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربى وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه » أ . هـ[1] .

بل إن الإمام الخطابى عليه الرحمة يرى أن هذا الرأى منسوب إلى الأكثرين من علماء النظر وذلك حيث يقول كما حكت قوله عبارة الزركشى فى البرهان : (قال الخطابى فى كتابه وإليه ذهب الأكثرون من علماء النظر : إن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن لما صعب عليهم تفصيلها صغوا فيه إلى حكم الذوق والقبول عند النفس » أ . هـ[2] المقصود منه .

ويالها من كلمة حق ورشد تلك التى نقلها الحافظ السيوطى فى اتقانه عن ابن أبى الحديد وذلك لكشفه عن حقيقة الذوق التى احتكم العلماء إليه فى ادراك شأن الإعجاز العجيب وذلك بالتمثيل له حيث قال عليه الرحمة (اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح والرشيق والأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق ولا يمكن إقامة الدليل عليه وهو بمنزلة جاريتين أحداهما بيضاء مشربة بحمرة دقيقة الشفتين نقية الثغر كحلاء العينين أسيلة

(١) راجع : مقدمة ابن خلدون ج ٤ / ١٢١٦ . باختصار تحقيق د / على عبد الواحد وافى ط البيان العربى ط ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م .

(٢) ج ٢ ص ١٠١ - ١٠٢ باختصار .

الخد دقيقة الأنف معتدلة القامة ، والأخرى دونها فى هذه الصفات والمحاسن لكنها أحلى فى العيون والقلوب منها ولا يدرى سبب ذلك ولكنه يعرف بالذوق والمشاهدة ولا يمكن تعليله وهكذا الكلام. نعم يبقى الفرق بين الوصفين أن حسن الوجوه وملاحتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كل من له عين صحيحة ، وأما الكلام فلا يدرك إلا بالذوق وليس كل من اشتغل بالنحو واللغة والفقه يكون من أهل الذوق وممن يصلح لانتقاد الكلام وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان وراضوا أنفسهم بالوسائل والخطب والكتابة والشعر وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة فإلى أولئك ينبغى أن يرجع فى معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض .. »[1] أ . هـ كلام ابن أبى الحديد رحمه الله .

وسيأتيك طرف من المثل القرآنية التى يتجلى فيها الإعجاز القرآنى من جهة بلاغته عند الحديث عن علاقة الإعجاز بعلم التفسير فانتظره فى حينه إن شاء الله تعالى من المبحث الثالث فى هذه الدراسة ؟

والله أعلم

(١) راجع ٢ ص ١٨١ ذكر ذلك عند حديثه عن العلوم التى يحتاج المفسر إليها من النوع الثامن والسبعون فى معرفة شروط المفسر وآدابه .

الجهة الثانية

بيان كون نظمه معجزاً

جاء القرآن الكريم بأفانين كثيرة من التصرف فى نظم الكلام مما لم يكن معهوداً فى أساليب العرب ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

ولا شك أن اشتمال القرآن الكريم على النظم الغريب والوزن العجيب والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب فى مطالعه وفواصله وقواطعه ليعد فى قمة وجوه إعجازه .

قال القاضى الباقلانى طيب الله ثراه : «ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين المألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم إلى معدل موزون غير مسجع ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم يكن معتدلا فى وزنه وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يستعمل ولا يتصنع له وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق» ا.هـ[1] المقصود منه .

فالقرآن جامع لمحاسن الجميع بنظم مكتس أبهى الحلل ومتعر عن كل خلل ويشتمل على خواص ماشامها سواه ومزايا ماسامها عند أهل النقد نظم الإلياه . .

(١) راجع : إعجاز القرآن ص ٥١ — ٥٢ على هامش الاتقان

من كل لفظ تكاد الأذن تجعله ربأ ويعبده القرطاس والقلم

ويؤيد ذلك أنه لا يصح أن يقال له رسالة أو خطابة أو سجع كما يصح أن يقال هو كلام والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما عداه من النظم بلا ترديد وهذا مما لا خفاء فيه على الرجال حتى على الوليد[1] .

ولعمرى إن مسئله النظم والأسلوب لإحدى الكبر وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ولم يوفها أحد حقها على كثرة ما بدءوا وأعادوا فيها وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد وإنما هو مائة أو أكثر : القرآن مائة واربع عشرة سورة متفاوتة فى الطول والقصر من السبع الطول التى تزيد السورة فيه على المائة وعلى المائتين من الآيات إلى السور المئين إلى الوسطى من المفصل إلى ما دونها من العشرات فالآحاد كالثلاث الآيات فما فوقها وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين المعين على الفهم المفيد للتأثير على اختلافها فى الفواصل، وتفاوت آياتها فى الطول والقصر فمنها المؤلف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ، ومنها المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر ومنها المتفق فى أكثر الفواصل أو كلها ومنها المختلف فى السورة الواحدة منها وهى على مافيها متشابه وغير متشابه فى النظم متشابهة كلها فى مزج المعانى العالية بعضها ببعض من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى وآياته فى الأنفس والآفاق والحكم والمواعظ والأمثال وبيان البعث والمآل ودار الأبرار ودار الفجار والاعتبار بقصص الرسل والأقوام وأحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام[2] .

وهكذا : أيها القارىء الكريم جاء القرآن مبتكراً للقول أساليب كثيرة بعضها تتنوع بتنوع المقاصد ومقاصدها بتنوع الأسلوب الإنشائى

(١) راجع : روح المعانى جـ ١ ص ٣١
(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ١٦٦

فيها أفانين كثيرة فيجد فيه المطلع على لسان العرب بغيته ورغبته ولهذا قال الوليد بن المغيرة لما استمع إلى قراءة النبى ﷺ : « والله ما هو بكاهن ما هو بزمزمته ولا سجعه وقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ما هو بشاعر » .

وكذلك وصفه أنيس بن جنادة الغفارى الشاعر أخو أبى ذر حين انطلق إلى مكة ليسمع من النبى ﷺ ويأتى بخبره إلى أخيه فقال « لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعته على أقراء الشعر[1] فلم يلتئم وما يلتئم على لسان واحد بعدى أنه شعر » ثم أسلم[2] ، وورد مثل هذه الصفة عن عتبه بن ربيعه والنضر بن الحرث[3] ، « والظاهر أن المشركين لما لم يجدوا بدأ من إلحاق القرآن بصنف من أصناف كلامهم ألحقوه بأشبه الكلام به فقالوا إنه شعر تقريباً للدهماء بما عهده القوم من الكلام الجدير بالاعتبار من حيث ما فيه من دقائق المعانى وأحكام الانتظام والنفوذ إلى العقول فإنه مع بلوغه أقصى حد فى فصاحة العربية ومع طول أغراضه وتفنن معانيه وكونه نثراً لا شعراً ترى أسلوبه يجرى على الألسنة سلساً سهلا لا تفاوت فى فصاحة تراكيبه وترى حفظه أسرع من حفظ الشعر .

وقد اشتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربى وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها وإن لذلك التنويع حكمتين داخلتين فى الإعجاز :

أولاهما : ظهور أنه من عند الله إذ قد تعارف الأدباء فى كل عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفه كل يجيد أسلوباً أو أسلوبين .

(١) الأقراء جمع قرء وهو الطريق
(٢) انظر : الشفاء جـ ١ ص ١٧٢ بتصرف
(٣) المصدر السابق ص ١٧١

الثانية : أن يكون فى ذلك زيادة التحدى للمتحدين به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول إن هذا الأسلوب لم تسبق لى معالجته ، ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته ، نرى من أعظم الأساليب التى خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء فى نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه وهما : مقصد الموعظة ومقصد التشريع فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه وهو فى هذا النوع يشبه خطبهم وكان فى مطاوى معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاماً كثيرة فى التشريع والآداب وغيرها ، وقد قال فى الكلام على بعضه « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم »[1] اهـ المقصود[2] .

وأقول : والناظر فى الأساليب التى اشتمل عليها النظم القرآنى يجدها كثيرة الوجوه ومتعددة الجوانب عنى بها العلماء عناية فائقة حتى ألفوا فيها المؤلفات المستقلة ما بين مختصر ومطول والتى لو أحببنا تعدادها ما سمح مجال تلك الدراسة لنا فمن أراد الوقوف عليها بالتفصيل فليطلبها من مظانها فى كتب البلاغة ومما هو منثور فى بطون كتب التفسير التى عنيت ببيان النكات البلاغية التى انتظمها النص القرآنى الكريم .

وسأضرب لك الأمثال باجتزاء بعض الإيات القرآنية التى يتضح لك فيها جانب الإعجاز القرآنى من جهة نظمة فانتظره فى حينه إن شاء الله تعالى عند الحديث عن علاقة الإعجاز بالتفسير وبالله التوفيق .

(١) سورة آل عمران آية ٧

(٢) مقدمة التحرير والتنوين ج ١ ص ١١٥ — ١١٦

الجهة الثالثة

« إعجازه من حيث موافقته للعقل ودقيق المعنى »[1]

وفى بيان هذا الوجه من أوجه الإعجاز القرآنى سنورد لك كلام علامة المفسرين العلامة الألوسى طيب الله ثراه على سبيل الإجمال ثم نعقبها بالتفصيل لهذا الإجمال وبيان الأوجه التى انتظمها هذا الوجه ومعرفة ما هو محل وفاق بين الجميع وما هو موضع نظر من البعض .

قال العلامة الألوسى طيب الله ثراه : (وأما إعجاز موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى فلأنه اشتمل على توحيد الله تعالى وتنزيهه والدعاء إلى طاعته وبيان طريق عبادته من تحليل وتحريم ووعظ وتعليم وأمر بمعروف ونهى عن منكر وإشادة إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها

(١) هذا الوجه من الإعجاز — والذى كما سيأتيك قد انتظم فى طيه كثيراً من أوجه إعجاز القرآن الكريم الأخرى المعتبرة — قد أغفله كثير من الكاتبين فى إعجاز القرآن من أمثال القاضى أبى بكر الباقلانى عليه سحائب الرحمة وكذا القاضى عياض طيب الله ثراه .

بيد أن المحققين من العلماء عدوه وجيها قائماً برأسه وملاكا لغيره من الوجوه من أمثال المحقق العلامة الألوسى نور الله ضريحه ومحقق العصر الحديث العلامة الطاهر ابن عاشور عليه الرحمة وذلك حيث يقول فى مقدمة تفسيره : (الجهة الثالثة : ما أودع فيه من المعانى الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر فى عصر نزول القرآن وفى عصور بعده متفاوتة .

وهذه الجهة أغفلها المتكلمون فى إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبى بكر الباقلانى والقاضى عياض » ا . هـ ج ١ ص ١٠٤ . والله أعلم .

واضعاً كل شيء منها موضعه الذى لايرى أولى منه ولا أليق ولا يتصور أحرى من ذاك ولا أخاق جامعاً بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه وامتثال ما أمر به واجتناب مانهى عنه مع إشارة أنيقة ورموز دقيقة وأسرار جزيلة وحكم جليلة »[1] ا. هـ. المقصود منه.

وأقول: عبارة العلامة الآلوسى على وجازتها اشتملت على مجموعة من الأوجه التى ينتظمها هذا الوجه الإعجازى للقرآن الكريم منها:

أولا: كون القرآن اشتمل على العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية.

ثانياً: كونه اشتمل على الإعجاز التشريعى سواء كان هذا التشريع سياسياً أو مدنياً أو جنائياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً مع موافقته وصلوحه لكل زمان ومكان.

ثالثاً: كونه قد اشتمل على قوانين الفضائل والآداب ومحاسن الأخلاق.

رابعاً: كونه قد جاء مشتملا على كثير من العلوم والمعارف التى لم تكن معهودة عند العرب أقول هذه هى بعض الأوجه المهمة التى اشتمل عليها نص العلامة الآلوسى المجمل والتى انتظمت فى سلك الوجه الثالث من أوجه الإعجاز.

وهذه الأوجه كلها معتبرة ومرادة وتكلم عنها العلماء وهى محل وفاق بينهم اللهم إلا ما كان من موقف بعضهم من الوجه الرابع منها وهو كونه

(١) روح المعانى ج ١ ص ٣١

قد اشتمل على كثير من أصول العلوم والمعارف التى لم تكن معهودة عند العرب.

وسنورد لك موقف هذا البعض والرد عليه وبيان خطئه تجاه هذه القضية وذلك بعد أن أقفك أيها القارىء على بعض كلام الناس فى الأوجه التى هى محل وفاق وتسليم بين الجميع.

قال ابن عاشور رحمه الله: (إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح مقصد أصلى جاء القرآن به وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما.

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب)[1].

فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة »[2] ا. هـ. المقصود منه.

وقال السعد التفتازانى مشيراً إلى هذا الأمر والذى بعده عند حديثه عن المسالك التى يستدل بها على إثبات رسالة محمد ﷺ: (الثانى أن من نظر فيما اشتملت عليه شريعته مما يتعلق بالاعتقادات والعبادات والمعاملات والسياسات والآداب وعلم ما فيها من دقائق الحكمة علم قطعاً أنها ليست إلا وضعاً إلهياً ووحياً سماوياً والمبعوث بها إلا نبياً »، أ. هـ، المقصود من كلامه رحمه الله[3].

(١) سورة هود: آية (١٠١)
(٢) راجع مقدمة تفسير ابن عاشور ج ١ ص ٤٠ بتصرف منا.
(٣) راجع المقاصد وشرحه (٢/٣٩).

وقال القاضى عياض فى الشفاء : « ومنها جمعه للعلوم ومعارف لم تعهد للعرب ولايحيط بها أحد من علماء الأمم ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم فجمع فيه من بيان علم الشرائع والتنبيه على طرق الحجة العقلية والرد على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة .

كقوله تعالى : (لو كان فيهما آلهـــة إلا الله لفسدتا)[1] وقوله : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم)[2] ولقد فتح الأعين إلى فضائل العلوم بأن شبه العلم بالنور وبالحياة كقوله : « لينذر من كان حياً »[3] وقوله : « يخرجهم من الظلمات إلى النور »[4] وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »[5] وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[6] .

وقال ابن عرفة عند قوله تعالى : « تولج الليل فى النهار »[7] فى سورة آل عمران : « كان بعضهم يقول إن القرآن يشتمل على ألفاظ يفهمها العوام وألفاظ يفهمها الخواص وعلى ما يفهمه الفريقان ومنه هذه الآية فإن الإيلاج يشمل الأيام التى لا يدركها إلا الخواص والفصول التى يدركها سائر العوام »[8] ا . هـ .

وقال شيخ الأشياخ الزرقانى عليه سحائب الرحمة : « ... تقرؤه فإذا بحر العلوم والمعارف متلاطم زاخر وإذا روح الإصلاح فيه قوى قاهر ، ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه فبينما تراه يصلح ما أفسده الفلاسفة بفلسفتهم إذ تراه يهدم ما تردى فيه الوثنيون بشركهم ، وبينما تراه

(١) سورة الأنبياء آية ٢٢ (٢) سورة يس آية ٨١
(٣) سورة يس آية ٧٠ (٤) سورة البقرة آية ٢٥٧
(٥) سورة العنكبوت آية ٤٣ (٦) سورة الزمر آية ٩
(٧) آية رقم ٢٧ (٨) راجع الشفاء ج ١ ص ١٨٠

يصحح ما حرفه أهل الأديان فى دياناتهم : إذ تراه يقدم للإنسانية موجاً صالحاً من عقيدة راشدة ترفع همة العبد وعبادة قويمة تطهر نفس الإنسان وأخلاق عالية تؤهل المرء لأن يكون خليفة الله فى الأرض وأحكام شخصية ومدنية واجتماعية تكفل حماية المجتمع من الفوضى والفساد وتضمن له حياة الطمأنينة والنظام والسلام والسعادة . . ديناً يساوق الفطرة ويوائم الطبيعة ويشبع حاجات القلب والعقل ويوفق بين مطالب الروح والجسد ويؤلف بين مصالح الدين والدنيا ويجمع بين عز الآخرة والأولى كل ذلك فى قصد واعتدال وببراهين واضحة مقنعة تبهر العقل وتملك اللب . . » ا.هـ[1] .

ومن هذه المقتطفات حول هذه الوجه ما سطره قلم العلامة بديع الزمان النورسى عند حديثه عن الإعجاز الدستورى (التشريعى) فى القرآن الكريم حيث قال عليه الرحمة : (القرآن الكريم دستور جاء من الأزل ويبقى إلى الأبد بالتالى وهـــو قوى الشباب دائمه)[2] و « إن المدينة بكل جمعياتها الخيرية وأنظمتها الصادقة . . ومؤسساتها التربوية الأخلاقية لم تستطع أن تعارض القرآن الكريم »[3] . ويتجلى لك ذلك من ذكره لمثل ونماذج كثيرة أورد شيخنا ا . د/ عبد الغفور محمود مصطفى بعضاً منها فقال أطال الله بقاءه . قال النورسى (النقطة الأولى حول الحياة الاقتصادية ونتكلم عنها من زوايتـــين . الزواية الأولى بخصوص من قوله تعالى (وأتوا الزكاة)[4] .

(١) راجع : مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٣٨ — ٢٣٩
(٢) راجع الكلمات ص ٤٧٣ — ٤٧٤
(٣) نفس المرجع .
(٤) سورة البقرة ٤٣

والزاوية الثانية بخصوص قوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) [١] فإن الإعجاز يظهر من كل منهما كما سيتضح . إن أس أساس جميع الاضطرابات والثورات فى المجتمع الإنسانى إنما هو كلمة واحدة كما أن منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضاً .

الكلمة الأولى : (إن شبعت فلا على أن يموت غيرى من الجوع).

الكلمة الثانية : (اكتسب أنت لآكل أنا واتعب أنت لأستريح أنا) .

إن الكلمة الأولى قد ساقت الخواص إلى الظلم والفساد .

ودفعت الكلمة الثانية العوام إلى الحقد والحسد والصراع فسلبت البشرية الراحة والأمان) [٢] (ولم تستطع المدنية أن تصلح بين هاتين الطبقتين وعجزت عن تضميد الجراح الغائرة فى الحياة البشرية) [٣] (أما القرآن الكريم فإنه يقلع الكلمة الأولى من جذورها ويداويها بوجوب الزكاة . ويقلع الكلمة الثانية من أساسها ويداويها بحرمة الربا) [٤]

وهذا إعجاز تشريعى قرآنى يتحدى البشرية أن تهتدى وتستريح بتشريع غيره فانظر كيف كانت كلمتان قرآنيتان اثنتان أو ـ حكمان ـ يلتجان الإعجاز فضلا عن سائر الشواهد مما نذكر وأيضاً مما لانذكر .

النقطة الثانية حول تعدد الزوجات : (إن المدنية الحاضرة لاتقبل تعدد الزوجات وتحسب ذلك الحكم القرآنى مخالفاً للحكمة ومنافياً

(١) سورة البقرة ٢٧٥
(٢) نفس المرجع .
(٣) نفس المرجع .
(٤) نفس المرجع ص ٤٧٤

لمصلحة البشر) [١] (وإن الحكمة من الزواج والغاية منه إنما هى التكاثر وإنجاب النسل أما اللذة الحاصلة من قضاء الشهوة فهى أجرة جزئية تمنحها الرحمة الإلهية لتأدية تلك المهمة فما دام الزواج للتكاثر وإنجاب النسل ولبقاء النوع — حكمة وحقيقة — فلا شك أن المرأة التى لا تمكن أن تلد إلا مرة واحدة فى السنة ولا تكون خصبة إلا نصف أيام الشهر وتدخل سن اليأس فى الخمسين من عمرها لا تكفى الرجل الذى له القدرة على الإخصاب فى أغلب الأوقات حتى وهو ابن مائه سنة لذا تضطر المدنية إلى فتح أماكن العهر والفحش [٢] .

أما دستور القرآن فهو النظافة والحكمة وفوز الموازين وهذا إعجاز لا يأتى بمثله — ولا يسمح بمثله — كل دساتير الأرض وفلسفات الأرض وأنى لهم ؟

النقطة الثالثة : حول نصيب المرأة فى الميراث : « إن المدنية التى لا تتحاكم إلى المنطق العقلى تنتقد الآية الكريمة (للذكر مثل حظ الأنثيين) [٣] التى تمنح النساء الثلث من الميراث (أى نصف ما يأخذه الذكر) .

ومن البديهى أن أغلب الأحكام فى الحياة الاجتماعية إنما تسن حسب الأكثرية من الناس فغالبية النساء يجدن أزواجا يعولونهن ويحمونهن بينما الكثير من الرجال مضطرون إلى أن يعولوا زوجاتهم ويتحملوا نفقاتهن . فإذا ما أخذت الأنثى الثلث من أبيها (أى نصف ما يأخذه الزوج من أبيه) فإن زوجها سيمد حاجتها . بينما إذا أخذ الرجل حظين

(١) نفس المرجع ص ٤٧٥
(٢) المصدر السابق .
(٣) سورة النساء آية (١١) .

من أبيه فإنه سينفق قسطا منه على زوجته وبذلك تحصل المساواة ويكون الرجل مساويا لأخته وهكذا تقضى العدالة القرآنية »[1] فأتوا بكتاب من عند غير الله أعدل منه إن كنتم صادقين »[2] ا. هـ

والآن حان وقت الشروع فيما وعدناك به على أن نفقك عليه من اعتراض المعترضين على كون القرآن قد اشتمل على أصول كثير من العلوم والمعارف التى لم تكن معروفة عند العرب ويجمل بنا قبل بيان خطئهم فى هذا المقام ودفع مقولتهم بالحجج الدامغة أن اورد لك شبههم متمثلة تلك الشبهة فيما نطقت به عبارة الإمام الشاطبى فى الموافقات حيث حمل هو لواء المعارضة فى هذا الجانب فقال طيب الله ثراه : «إن القرآن لا تحمل معانيه ولا يتأول إلا على ما هو متعارف عند العرب . . . ثم يقول : إن كثيراً من الناس تجاوزا فى الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والعلوم الرياضية والمنطق وعلم الحروف وجميع ماينظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها . . . ثم يقول : وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح وإلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف الناس بالقرآن وبعلومه وماأودع فيه ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدعى غير ما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة .

ثم يقول منتهياً إلى نتيجة صعبة : « وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء مما زعموا . . . » .

« نعم تضمن » أى القرآن « علوماً من جنس علوم العرب أو ما يبنى

(١) المصدر السابق

(٢) راجع : مدارس ومناهج ص ١٤١

على معهودها مما يتعجب منه أو لو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره »[1] ا. هـ كلامه .

أقول كلام الإمام الشاطبى فى هذا المقام يأتيه الخلل من بين يديه من خلفه وعند التحقيق العلمى لا يستقيم على قدم :

أولا : قوله : إن القرآن لا تحمل معانيه ولا يتأول إلا على ما هو متعارف عند العرب .

فإنا نقول : من المعلوم أن القرآن الكريم خالف أساليب الشعر وأغراضه المختلفة عند العرب مخالفة واضحة وسبق أن قررنا فى الوجه الثانى من أوجه الإعجاز أن القرآن الكريم جاء بأفانين كثيرة من التصرف فى نظم الكلام مما لم يكن معهوداً فى أساليب العرب غاية الأمر غير خارج عما تسمح به لغتهم فإذا كان مقصود الإمام من قوله لا تحمل معانيه ولا يتأول إلا على إلخ فسلم وأما إن كان مقصوده أن القرآن لا يمكن يخرج عن مألوفهم وما كان معهوداً فلا .

كيف لا يخرج وقد جاء نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارجاً عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أساليب يختص بها ويتميز فى تصرفها عن أساليب الكلام المعتاد ؟ ؟

ولعل هذا الكلام — كما يقول بعض المحققين — صدر من الإمام الشاطبى فى التنفس من مشكلات فى مطاعن الملحدين اقتصاداً فى البحث وإبقاء على نفيس الوقت وإلا فكيف ينفى إعجاز القرآن لأهل كل العصور؟ وكيف يقصر إدراك إعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بعجز أهل

(١) راجع الموافقات جـ ٢ ص ٦٥ — ٧٩

زمانه إذ عجزوا عن معارضته ؟ وإذ نحن نسلم لهم التفوق فى البلاغة والفصاحة فهذا عجز إقناعى يعجز أهل عصر واحد ولا يفيد أهل كل عصر إدراك طائفة منهم لإعجاز القرآن[1] . هذا أولا .

أما ثانياً : فقوله أن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين إلخ مقولته فإنا نقول :

لا شك أن الكلام الصادر عن علام الغيوب تعالى وتقدس لا تبنى معانيه على فهم طائفة واحدة ولكن معانيه تطابق الحقائق وكل ما كان من الحقيقة فى علم من العلوم وكانت الآية لها اعتلاق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل ولا يكون تكلفا بيناً ولا خروجاً عن المعنى الأصلى حتى لا يكون فى ذلك كتفاسير الباطنية وكلام الإمام الشاطبى هذا الذى نطقت به عبارته إنما هو مبنى على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطاباً للأميين وهم العرب فإنما يعتمد فى مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقتهم وأن الشريعة أمية[2] .

قال فى النوع الثانى فى بيان قصد الشارع فى وضع الشريعة للإفهام: المسئلة الأولى : — إن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة لأن الله يقول « إنا أنزلناه قرآناً عربياً » وقال « بلسان عربى مبين » إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربى وبلسان عربى .. فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل إلى تطلب

(١) راجع مقدمة تفسير ابن عاشور جـ ١ ص ١٢٨
(٢) راجع : مقدمة تفسير عاشور جـ ١ ص

فهمه من غير هذه الجهة » ا. هـ المقصود من كلامه[1] .

وقال فى المسئلة الثالثة : « هذه الشريعة المباركة أمية » يعنى لا تحتاج فى تفهمها وتعرف أوامرها ونواهيها ، إلى التغلغل فى العلوم الكونية والرياضيات وما إلى ذلك »[2] لأن أهلها كذلك فهو أجرى « أى فإن تنزيل الشريعة على مقتضى حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التى يقصدها الشارع الحكيم »[3] على اعتبار المصالح » ا. هـ[4] المقصود من كلامه .

وهذا الأساس الذى بنى عليه واه من ستة وجوه كما يقول العلامة ابن عاشور :

الأول : أن ما بناه عليه يقتضى أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال وهذا باطل لما قد مناه قال تعالى « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا »[5] .

الثانى : أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتى من الناس فى عصور انتشار العلوم فى الأمة .

الثالث : أن السلف قالوا : إن القرآن لا تنقضى عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبى لا نقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه .

(١) الموافقات جـ ٢ ص ٦٤
(٢) من كلام الشارح رحمه الله أعنى ما بين القوسين
(٣) من كلام الشارح أيضا رحمه الله
(٤) راجع المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٩
(٥) سورة هود آية ٤٩

الرابع : أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعانى مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة .

الخامس : أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضى إلا أن يكون المعنى الأصلى مفهوماً لفيهم فأماما زاد على المعانى الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام وتحجب عنه أقوام ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .

السادس : أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعاً إلى مقاصده فنحن نساعد عليه وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات بل قد بينوا وفصلوا وفرعوا فى علوم عنها ولا يمنعنا ذلك أن نقفى على آثارهم فى علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلاميه .

أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضاً لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هى عليه وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير لكنه تكملة للمباحث العلمية واستطراد فى العلم لمناسبة التفسير ليكون متعاطى التفسير أفسح قريحة فى العلوم »[1] ا . هـ المقصود منه .

والحاصل : أن هذا النوع من المعارف التى جاءت فى سياق بيان آيات الله وحكمه هو اظهار ترقى العلم لحقيقتها المبينه فيه مما يدل دلالة قاطعة على أنها موحى بها من الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ هذا هو الوجه الثانى الذى يأتى كلام الإمام الشاطبى الخلل من قبله .

(١) راجع مقدمة تفسير ابن عاشور ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ باختصار

أما الوجه الثالث : فقوله رحمه الله : « وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقوير لشىء مما زعموا إلخ نقول : كون القرآن لم يقصد فيه تقوير شىء من هذه العلوم الكونية ظاهر لأنه ليس بصدد ذلك .

أما كونه لا يجىء فى طريق دلائله على التوحيد ما ينبنى عليه التوسع فى إدراكها واتقان معرفتها إذا لم يكن معروفاً عند العرب فهو محل نظر .

وليت شعرى هل كل ما تضمنه القرآن من أوصاف نعيم الجنة وعذاب النار من معهود العرب فى الدنيا ؟

وهل — ياأولى الألباب — مثل الإسراء والمعراج من معهوداتهم ؟

أما أصل الموضوع فمسلم أنه لا يصح أن يتكلف فى فهم كتاب الله بتحميله لما لا حاجة بالتشريع والهداية إليه من أنواع العلوم الكونية .

لكن الذى لا نسلمه وما ينبغى لعاقل أصلا أن يسلمه له هو قصره بطريق القطع على ما عند العرب فى علمها ومألوفها .

إن نازعنا فى ذلك فلنأتنا ببرهان على ذلك . وأنى له به !

فقصره بطريق القطع — كما قلنا — على ما عند العرب فى علمها ومألوفها مما لا سبيل إليه ولا حاجة له .

أما قوله طيب الله ثراه: ويجب الاقتصار — فى الاستعانة على فهمه — على كل ما يضاف عليه إلى العرب خاصة إلخ فهو كلام غير محرر وغير دقيق .

فلعمر الحق لو قال — على كل ما يضاف عليه إلى جمهور الناس لكان أقعد والتعبير به أحسن لأن الخطاب به لكل من بلغه فقد يفقه بعضه

بغير ما يضاف إلى العرب كما ورد (بلغوا عنى ولو آية قرب مبلغ أوعى من سامع)[1] .

ولتكن على ذكر أيها القارىء الكريم أن الإمام الشاطبى لو قاله فى هذا المقام العرب فإنما يعنى العرب الذين كانوا فى عهد الرسول ﷺ فعلى رأيه — رحمه الله — لا يجوز لنا أن نتوصل إلى فهم مثل آيتى النحل فى تكوين اللبن والعسل وما فيهما من أعاجيب ربنا فى صنعه .

أقول : على رأيه لا يجوز لنا أن نتوصل إلى ذلك من علم حياة النحل وحياة الحيوان ذى الدر مع أنه لا يمكن أن تتم العظة والاعتبار الذى يشير إليه الكتاب الكريم فى آخر كل آيه منهما (إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون — ولقوم يتفكرون أقول : لا يتم ذلك على وجهه إلا بمعرفة تكوين العسل واللبن فى علم حياة النحل وغيره .

وكذلك لا يتم فهم (فيه شفاء للناس) على وجهها إلا بعد معرفة ما يصلح من الأمراض أن يكون العسل دواء له ، ومالا يصلح بل يكون ضاراً ويترتب عليه أن اللام فى الناس للجنس أو العموم وهكذا .

قال الجمل : ما يقال من أن تعريف الناس يفيد العموم فدلت الآية

(١) هذا النص من حديثين أحدهما : (بلغوا عنى ولو آية وتكملته « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » أخرجه البغوى فى شرح السنة كتاب العلم تبليغ حديث الرسول وحفظه، راجع شرح السنة ج ١/٢٤٣
وثانيهما : (فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه الترمذى وأبو داود ونصه : (نضّر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع) وقال الترمذى حديث صحيح .
راجع : التاج الجامع للأصول ج ١ ص ٦٨

على أن العسل شفاء من كل داء مع أنه يضر الصفراوى المحمومين والمحرورين .

وتقرير الجواب ، أن ما يكون علاجاً للصفراوى إنما يتم ويكمل بالعسل فلا يقتضى أن كل شفاء به ولا أن كل أجير يستشفى به »[1] اهـ .

وحكى القرطبى اختلاف العلماء تجاه اللام فى « الناس » المفيدة للجنس أو العموم هل قول الله تعالى (فيه شفاء للناس) باق على عمومه أولا ؟ وحكى أقوال العلماء فى ذلك فارجع إليه إن شئت[2] .

والواقع أن كتاب الله تعالى للناس كلهم يأخذ منه كل على قدر إستعدادة وحاجته وإلا لاستوى العرب أنفسهم فى الفهم للكتاب والأمر ليس كذلك كما هو بين وجلى .

ألا ترى إلى قول الإمام على رضى الله عنه لما سأله أبو جحيفة : هل عندكم (يعنى يا أهل البيت) كتاب (خصكم به النبى ﷺ من أسرار الوحى ؟ قال: « لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم » يعنى فى كتاب الله من فحواه يدركه من باطن المعانى التى هى غير الظاهر من نصه والناس فى هذا متفاوتة[3] .

أولا ترى كذلك إلى ما حصل بين عمر بن الخطاب والصحابة رضى الله عنهم لما لامه بعضهم على إدخال ابن عباس رضى الله عنهما إلى مجلس

(١) راجع الفتوحات الإلهية ج ٢ ص ٥٨٤ ، ط ، دار أحياء الكتب العربية الحلبى .
(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٣٦ فما بعدها عند حديثه عن المسئلة الرابعة من مسائل الآية .
(٣) راجع : التاج الجامع للأصول ج ١ ص ٦٩

الشورى وهو صغير السن فجمعهم عمر واحضر ابن عباس بينهم وسألهم عن سورة « إذا جاء نصر الله والفتح » فقال كل واحد ما ظهر له من النص ثم سأل ابن عباس آخرهم فقال : معناه الإعلام بقرب وفاة النبي ﷺ، فقال عمر رضى الله عنه : لا أفهم منها إلا ذلك والقصة فى كتب السنة فراجعها[1] .

قال ابن حجر رحمه الله :(وفيه — أى الحديث — جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه فى العلم ولهذا قال على رضى الله عنه : أو فهما يؤتيه الله رجلا فى القرآن »[2] اهـ.

وبهذا الذى ذكرته لك يتبين عدم دقة قول الإمام الشاطبى رحمه الله من وجوب الاقتصار فى الاستعانة على فهم كتاب الله تعالى على كل ما يضاف عليه إلى العرب خاصة .

وبهذا الوجه يتبين لك أيضاً مافى كلام الإمام الشاطبى من الخلل البين فلا يهولنك صنيعه فى هذا المقام وكما يقولون لا يعرف الحق بالرجال وإنما يعرف الرجال بالحق « والحق أحق أن يتبع » والله أعلم .

---

(١) القصة أخرجها البخارى ك التفسير ب قوله فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا .

(٢) فتح البارى ج ٨/٥٩٩

الجهة الرابعة

إخباره عن المغيبات[1]

من أوجه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن المغيبات فى المستقبل التى

---

(١) حصر البعض إعجاز القرآن فى هذا الوجه دون غيره من الوجوه الأخرى وهذا قول غير سديد وقد أجاد فى الرد عليه صاحب كتاب الطراز وذلك حيث قال : (قول من زعم أن الوجه فى الإعجاز إشتماله على الأمور الغيبية بخلاف غيره وهذا فاسد لأمرين :

أما أولا : فلأن الإجماع منعقد على أن التحدى واقع بجميع القرآن والمعلوم أن الحكم والآداب وسائر الأمثال ليس فيها شىء من الأمور الغيبية فكان يلزم على هذه المقالة أن لا يكون معجزاً وهو محال .

أما ثانياً : فلأن ما قالوه يكون أعظم عذراً للعرب فى عدم قدرتهم على معارضته فكان من حقهم أن يقولوا : إنا متمكنون من معارضة القرآن ولكنه إشتمل على ما لا يمكننا معرفته من الأمور الغيبية فلما لم يقولوا ذلك دل على بطلان هذه المقالة — ويعنى بها حصر إعجاز القرآن فى وجه إشتماله على الأمور الغيبية — وقال الزركشى فى البرهان: (رد هذا القول بأنه يستلزم أن الآيات التى لاخبر فيها بذلك لا إعجاز فيها وهو باطل فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها .

نعم هذا الوجه من أنواع الإعجاز فى القرآن إلا أنه غير منحصر فيه » اهـ .

راجع الطراز للشيخ يحى بن حمزة العلوى اليمنى (٣٩٨/٣) ط « دار الكتب العلمية بيروت .

لا يطلع عليها إلا بالوحى وإخباره ما يحكم العرف بكثرته من أخبار القرون الماضية والأمم البادية مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب .

« فالقرآن الكريم يخبر عن الماضى خبر الحاضر الناظر ويجعل تلك الأخبار مقدمة لمقصده بخلاصة للحادثة الطويلة مع لمس العقدة الحياتية لها فى إيجاز وعلو فى الغرض — لا يجرد تسلية — فلا تجد حشواً كما لا تجد نقصاً وتجد فى ذلك الصدق كله والهيمنة البالغة حد التصحيح لما يكون مزيفاً ، ومن الاعتداد بالنفس والثقة الكاملة المطلقة وبشجاعة المتحدية وليس ذلك إلا لكلام العليم الخبير على لسان أمى لم يقرأ كتاباً

= قلت : ولم يرتض هذا القول من أصحابه كذلك الإمام الخطابى رحمه الله تعالى وذلك حيث يقول : « وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما تضمنه من الأخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان نحو قوله تعالى : (ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ...) الروم الآيات الأولى منها ، وكقوله سبحانه : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » سورة الفتح آية ١٦ .

ثم يقول معقباً على هذا القول : (ولا يشك فى أن هذا وما أشبهه من أخباره — أى أخبار القرآن — نوع من إعجازه ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن وقد جعل الله — سبحانه — فى صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ولا يقدر أحد من الخلق على أن يأتى بمثلها ... فقال سبحانه : « فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » البقرة آية ٢٣ ، وذلك من غير تعيين لسورة خاصة . . فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه » ا . هـ ، رسالة بيان إعجاز القرآن نقلا عن إعجاز القرآن وتطور وجوه إعجازه ص ١٠٩

ولم يجلس إلى معلم ولم يكن بين ظهرانى أهل العلم بهذه المغيبات إن كان هناك أهل علم صحيح كامل عالى الهدف ربانى فانظر أخباره من لدن آدم عليه السلام إلى خير القرون وقارن ما تجده مشتركا بينه وبين التوراة والإنجيل لترى بيانه فوق بيانهما وإظهاره الكثير مما أخفاه أهل الكتاب وحكمه الحق الصائب الفصل فيما اختلفوا فيه وهيمنته إلى آخر ما تجده وتراه[1] .

قال القاضى عياض فى الشفاء مشيراً إلى هذه الناحية من إخبار القرآن عن الأمم السالفة والقرون الماضية ومما عده هو وجها مستقلا بينما غيره من العلماء أدرجه فى أخبار الغيب ونحن على طريقة غيره سائرون : (ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم القصة منه إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قضى عمره فى تعليم ذلك فيورده النبى ﷺ على وجهه فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه كخبر موسى مع الخضر ويوسف وإخوته وأصحاب الكهف وذى القرنين ولقمان وابنه وأشباه ذلك من الأنباء وبدء الخلق وما فى التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى مما صدقه فيه العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها بل أذعنوا لذلك فمن موفق آمن بما سبق له من خير ومن شقى معاند حاسد ومع هذا لم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول احتجاجه عليهم بما فى كتبهم وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم وكثرة سؤالهم له ﷺ وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم ومستودعات سيرهم وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم ومضمنات كتبهم مثل سؤالهم عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف وعيسى

---

(١) راجع : كليات رسائل النور المجلد الأول (الكلمات) ص ٤٦٨ — ٤٧٠ — ٤٧٩ — ٤٨٠

وحكم الرجم وما حرم إسرائيل على نفسه وما حرم عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم ... فلم يؤثر أن أحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحاً ولاسقيماً من صحفه» ا. هـ[1] منه .

أما إخباره بالحوادث المستقبلة والإعلان بها فى الأعصار الآتية فكثير فى القرآن الكريم كقوله تعالى : « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعدهم غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »[2] .

وأخبار أقوام فى قضايا أنهم لا يفعلونها فما فعلوها ولاقدروا كقوله تعالى خطاباً لليهود « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً »[3] فما تمناه أحد منهم إلى أضعاف مضاعفة من مثل ذلك قد اشتمل القرآن عليها واختص من بين الكتب بها حتى إن أقصر سورة فيه وهى الكوثر تشير إلى أربعة أخبار عن الغيب مع أنها ثلاث آيات (الأول) فى قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر »[4] ، إذا أريد به كما فى بعض الروايات كثرة الاتباع ، و(الثانى) فى قوله (وانحر) حيث أريد به كما هو الظاهر الأمر بالنحر فهو إشارة إلى اليسار حتى يمكنه الإقدام عليه .

(والثالث والرابع) فى قوله تعالى : « إن شانئك هو الأبتر » حيث صرح ورمز بأن شأنئك لا أنت أبتر لا عقب له فكان كما أخبر ولاشك عند كل عاقل أن مجموع ما ذكرنا يعجز عنه البشر[5] .

---

(١) راجع ج ١ ص ١٧٥ — ١٧٦

(٢) سورة الروم من آية ١ — ٤

(٣) سورة البقرة ٩٤ ، ٩٥

(٤) سورة الكوثر رقم ١

(٥) روح المعانى ج ١ / ٣٢ وإن أردت المزيد فى معرفة تلك =

وانظر إلى قوله : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ، واعلم أن أشهر معانى الموصول عهد كالألف واللام فهنا إشارة إلى صناديد الكفر أمثال أبى جهل وأبى لهب وأمية بن خلف ، وقد ماتوا على الكفر ففى الآية إخبار عن الغيب وأمثال هذا الإخبار يتولد عنه نوع من الإعجاز[1] .

ولله در العلامة ابن عاشور فقد جود هذا تجويداً حسناً مما لانرى بأساً فى أن ننقل لك كلامه . هنا أيضاً بتمامه وذلك حيث يقول فى الوجه الرابع : « وأما الجهة الرابعة وهى الإخبار بالمغيبات فقد اقتفينا أثر من سلفنا ممن عد ذلك من وجوه الإعجاز اعتداداً منا بأنه من دلائل كون القرآن منزلا من عند الله ، وإن كان ذلك ليس له مزيد تعلق بنظم القرآن ودلالة فصاحته وبلاغته على المعانى العليا ...

وقد جاء كثير من آيات القرآن بذلك منها قوله : (ألم غلبت الروم) الآية .

وروى الترمذى فى تفسيرها عن ابن عباس قال كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم لأنهم أهل كتاب فذكره أبو بكر لرسول ﷺ

= الأسرار المعجزة فى هذه السورة فارجع إلى مفاتيح الغيب للرازى ج (٣٢ / ١١٧ — ١٣٤) ، البحر المحيط (٨/٦١٩) وغرائب القرآن للنيسابورى على هامش جامع البيان للطبرى (٣٠/١٧٤) ، مجمع البيان للطبرسى (٥/٩٠٠) .

(١) راجع : مدارس ومناهج فى تفسير القرآن الكريم لشيخنا ا . د عبد الغفور مصطفى .

فنزل قوله تعالى : « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » فخرج أبو بكر يصيح بها فى نواحى مكة فقال له ناس من قريش أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال بلى وذلك قبل تحريم الرهان فلما كانت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس وأسلم عند ذلك كثير من قريش[1] ، وقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

---

(١) أخرجه الترمذى بروايات متعددة فى التفسير ، بتفسير سورة الروم لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كان فى وقت معين إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون ، ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفى من دلائله أنها غزيت فى عقر دارها وهزمت فى بلادها كما قال تعالى : (فى أدنى الأرض) فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها قائمة بعد ذلك فضلا عن أن يحدد الوقت الذى سيكون لها النصر فيه ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه ، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين بل عززهما بثالث حيث يقول : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) إشارة إلى أن اليوم الذى سيكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين وإذا كان كل واحد من النصرين فى حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد فكيف الظن بوقوعهما مقترنين فى يوم واحد لذلك أكده أعظم التأكيد بقوله : (وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

ولقد صدق الله وعده فتمت الروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤرخين فى أقل من تسع سنين وكان يوم نصرها هو اليوم الذى وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين فى غزوة بدر الكبرى .

رب قائل يقول : هلا حدد القرآن عدد السنين بلفظ أصرح من لفظ

ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا »[2] ، وقوله : « لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون »[3] .

فما حدث بعد ذلك من المراكب مبتدأ به فى هذه الآية ، وقوله : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً »[4] نزلت قبل فتح مكة بعامين ، وقوله : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون »[5] وأعلن ذلك الإعجاز بالتحدى به فى قوله تعالى فى شأن القرآن « وإن

= البضع المتراوح بين الثلاث والتسع ؟ أليس الله بأعلم بيوم النصر وساعته بله سنته ؟

فنقول : بلى ولكن الناس فى اصطلاحهم الحسابى لايجرون على طريقة واحدة فمنهم من يحسب بالشمس ومنهم من يحسب بالقمر ومنهم من يكمل الكسور ومنهم من يلغيها فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع لكل شبهة وأبعد عن كل جدل ومكابرة ثم إنه ربما تراخى الأمر بين بشائر النصر ووقائعه الفاصلة فيقع اختلاف الحاسبين فى تعيين الوقت الذى يضاف إليه النصر والغلبة ، ولذا حسن التعبير بلفظ (فى بضع) دون أن يقال بعد بضع ، راجع النبأ العظيم للعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٤١ — ٤٢

(١) سورة البقرة آية (٥٥) .
(٢) سورة النحل آية (٨) .
(٣) سورة الفتح آية (١) .
(٤) سورة الفتح آية (٢٧) .

كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله »[1] إلى قوله : « ولن تفعلوا » فسجل أنهم لا يفعلون ذلك أبداً وكذلك كان »[2] .

وصدق الله العظيم إذ يقول « قل لئن إجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[3]

وبعد فهذه هى الأوجه البارزات من أوجه إعجاز القرآن الكريم وماعداها عائد إليها ومنطو تحتها . . فوجوهه كثيرة ومتعددة ولا يمكن أن تحصر . والواقف على ما كتبه العلماء فى أوجه إعجاز القرآن الكريم تستبين له حقيقتان :

أولاهما : العجز عن إمكان حصر وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ذلكم لأن إعجاز القرآن الكريم لو أمكن حصر وجوهه لانقطع بحث الباحثين فى آيات الله وكلماته ولما كان لمجتهد مطلب يطلبه فيه بعد أن قيلت الكلمة الأخيرة عنه .

ثانيهما : أن القرآن كله آيات معجزة تطلع من كل حرف من حروفه ومن كل كلمة من كلماته وفى كل آية[4] بهذا يرى الناظرون فى القرآن الكريم على اختلاف أزمانهم وأوطانهم وجوها لا تنتهى من وجوه الإعجاز دون أن ينتهوا جميعاً إلى غاية يقفون عندها .

(١) آية سبق تخرجها .
(٢) راجع التحرير والتنوير ج ١ ص ١١٧
(٣) آية سبق تخريجها .
(٤) لعلك على ذكر بما سقناه لك من قول بعض العلماء فى أن الإعجاز يتحقق بحرف من حروفه أو بكلمة من كلماته أو بآية من آياته هذا القول — وإن كان على غير ماعليه المحققون — يؤيد هذه الحقيقة ويقويها .

قال الأستاذ الرافعى : (أنه — أى القرآن — معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها فى إعجاز الصنعة وهيئة الوضع وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مغرغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها ومانظنه إلا الصورة الروحية للإنسان إذا كان الإنسان فى تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله.

فالقرآن معجز فى تاريخ دون سائر الكتب ومعجز فى أثره الإنسانى ومعجز كذلك فى حقائقه وهذه وجوه عامة لاتخالف الفطرة الإنسانية فى شىء فهى باقية مابقيت » أ . هـ[1] .

وقال الأستاذ عبدالوهاب خلاف . (لايستطيع أى باحث مهما أوتى من العلم أن يحصى الوجوه والنواحى التى من أجلها عجز الناس عن أن يأتوا بمثل القرآن لأن وجوه إعجاز القرآن إنما أحاط علماً بها من أنزله وليس فى استطاعة إنسان أن يحيط علماً بما أحاط الله علماً به وغاية مايستطيع الباحث أن يعده من وجوه إعجاز القرآن الوجوه التى أشار إليها القرآن نفسه » ا. هـ المقصود من كلامه[2] والله أعلم .

(١) راجع كتابه القيم إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ١٥٦ .
(٢) راجع . وجوه إعجاز القرآن بحث منشور فى مجلة لواء الإسلام ص ١٤ فما بعدها العدد الثامن السنة الثالثة غرة ربيع الثانى ١٣٦٩ هـ — يناير ١٩٥٠ م .

المبحث الثالث

علاقة الإعجاز بعلم التفسير ومدى حاجة المفسرين إليه

لا يخفى على من له حظ من النظر أن التفسير هو الكاشف والمبين عن مراد الله تعالى من كلامه وكلام الله قد اشتمل على دقائق وأسرار وخواص خارجة عن طوق البشر وهذا سر إعجازه ومن ثم لا يمكن للمفسر الوقوف على شيء من أسرار الإعجاز القرآني إلا بعد حذقه واتقانه لعلوم اللسان العربي — الذي نزل القرآن به — وإماطته اللثام عن أسرار الجمال وتذوقه التام للبلاغة بشتى فنونها فمتى اتقن المفسر ذلك استطاع أن يفهم الكمال والجمال الذين انتظمهما هذا الكتاب الكريم، الذي يمثل العربية في أبهى مبانيها وأسمى معانيها وانقى صورها وهو الدال على قوتها وصلابتها ولا يعد تفسير المفسر لمعاني القرآن — كما يقول الشيخ ابن عاشور — « بالغاً حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسرة بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آي القرآن في ذلك ... لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر »[1] ا. هـ المقصود .

ثم تراه رحمه الله يلقي باللائمة على التفاسير التي خلت من الأصول

(١) راجع التحرير والتنوير ج ١ ص ١٠٢

والنكات التي تلمح منها نواحي إعجاز القرآن فيقول: (فمن أعجب ما تراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير فمن مقل مثل معاني القرآن لأبي اسحاق الزجاج والمحرر الوجيز للشيخ عبدالحق بن عطية الأندلسي، ومن مكثر مثل الكشاف — لجار الله الزمخشري — .

ولا يعذر في الخلو عن ذلك إلا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل أحكام القرآن، على أن بعض أهل الهمم العلية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب أحكام القرآن لإسماعيل بن اسحاق بن حماد المالكي البغدادي ولما تراه في مواضع من أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي » ا هـ [1] المقصود منه.

قلت : وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين كما وصفه منزله فإن العربية وقواعدها هي الطريق لفهم معانيه وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة أو المحصل لها من تعلمه المجموع علوم اللسان العربي وهي متن اللغة التصريف والنحو والمعاني والبيان والتي هي من جملة العلوم التي يجب أن تتوفر فيمن يريد التفسير كما هو مقرر في محله[2] .

ولعل هذا ماعناه جار الله الزمخشري وذلك حيث يقول في مقدمة تفسيره : (ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٠٣

(٢) راجع الشروط التي يجب توافرها في المفسر في كتب علوم القرآن وأصول الفقه .

سليماً من القادح فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل ، اهـ (١) ،

قلت : وإذا كان هذا شأن العلوم اللسانية عامة ومدى حاجة المفسر إليها لتكون عوناً له فى تفهم أسرار كلام الله تعالى وهو القرآن وبيان إعجازه فإن لعلمى البيان والمعانى مزيد اختصاص بعلم التفسير لأن هذين العلمين وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية وما تشتمل عليه الآيات المباركات من تفاصيل المعانى وإظهار وجه الإعجاز ومن ثم كان هذان العلمان فى القديم يسميان « علم دلائل الإعجاز » .

ومن أحسن ماوقفت عليه فى هذا المقام من خصوصية هذين العلمين الجليلين ومدى تعلقهما بعلم التفسير كلمة العلامة السعد التفتازانى وذلك حيث يقول طيب الله ثراه : (لما كان علم البلاغة هو المعانى والبيان وعلم توابعها — وهو البديع — من أجل العلوم قدراً وأدقها سراً إذ به — أى بعلوم البلاغة وتوابعها لا بغيره من العلوم يعرف دقائق العربية وأسرارها فيكون من أدق العلوم سراً وبه يكشف عن وجوه الإعجاز فى نظم القرآن أستارها فيكون من أجل العلوم قدراً لأن المراد بكشف الأستار معرفة أنه معجز لكونه فى أعلى مراتب البلاغة لاشتماله على الدقائق والأسرار والخواص الخارجة عن طوق البشر وهذه وسيلة إلى تصديق النبى ﷺ فى جميع ماجاء به ليقتفى أثره فيفـــاز بالسعادات الدنيوية والأخروية فيكون من أجل العلوم لكون معلومه من أجل المعلومات وغايته من أشرف الغايات وجلالة العلم بجلالة المعلوم وغايته ، اهـ (٢) .

(١) راجع : مقدمة الكشاف ج ١

(٢) راجع شرح المطول على التلخيص ص ٩ ط الحلبى

ونراه فى خطبة المطول يثنى على العلوم ويحث على التحلى بحقائقها وخص بالثناء بعد تعميم علم البيان حيث هو الكشاف عن حقائق التنزيل فيقول عليه الرحمة : (وبعد فإن أحق الفضائل بالتقديم وأسبقها فى إستيعاب التعظيم هو التحلى بحقائق العلوم والمعارف والتصدى للإحاطة بما فى الصناعات من النكت واللطائف لاسيما علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن فإنه كشاف عن حقائق التنزيل رائق ، مفتاح لدقائق التأويل فائق ، تبيان لدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، إيضاح لمعالم الإيجاز وآثار الفصاحة ، وتلخيص لغوامض مشكل كتاب الله تعالى ومعضله ، تقريب للغوص على فرائد مجمله ومفصله ، قواعده كافية فى ضوء المصباح إلى أنوار التأويل ، اهـ (١) .

أريت معى أيها القارىء بعد هذين النقلين اللآنفين لك من كلام السعد كيف أن العلاقة بين علم التفسير وعلم البلاغة الذى هو بمثابة الكشاف عن حقائق التنزيل المجيد والمفتاح لدقائق تأويلاته والتبيان لدلائل إعجازه وأسرار بلاغته .

أقول : أرأيت معى كيف أن العلاقة قائمة بين العلمين وأنه لا ينبغى لكل ذى علم مهما بلغ فى إتقانه أن يتصدى لعلم التفسير ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا إذا برع فى إتقان علم البلاغة المختص بالقرآن والذى هو بمثابة المصباح المنير إلى أنوار التأويل والتبيان لدلائل إعجاز القرآن المجيد ؟

قال جار الله الزمخشرى عليه الرحمة : (علم التفسير الذى لا يتم التعاطيه وإجاله النظر فيه كل ذى علم فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ

(١) نفس المصدر ص ٢

القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية[1] أحفظ والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علما البيان والمعانى، اهـ[2].

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى. (والسماوات مطويات بيمنه) من سورة الزمر: (وما أتى الزالون — يعنى الذين زلت أقدامهم فى فهم المتشابهات — إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير حتى يعلموا أن فى عداد العلوم الدقيقة علماً — يعنى به علم البيان كما سبقت الإشارة إليه فى كلامه صراحة — لو قدروه حق قدره. لما خفى عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه إذ لا يحل عقدها المؤربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو، وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث رسول الله ﷺ قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الوثة لأن من تأول ليس من هذا العلم فى عير ولا نفير ولا يعرف قبيلا منه من دبير، اهـ[3].

وها هو الإمام السكاكى يبين أن إتقان علمى البيان والمعانى من أعون

(١) بكسر القاف وبتشديد الراء مع كسرها وفتح الياء مع تشديدها هو: أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالى أحد بلغاء الدهر خطيب يضرب به المثل فيقال «أبلغ من ابن القرية» والقرية أمه. كان أعربياً أمياً يتردد إلى عين التمر (غربى الكوفة) فاتصل بالحجاج فأعجب بحسن منطقه فأوفده على عبدالملك بن مروان، راجع ترجمته كاملة فى وفيات الأعيان (٨٢/١) الإعلام للزركلى (٨٣/١)

(٢) راجع الكشاف ج١ ص

(٣) راجع نفس المصدر ج٣ ص ٤٠٩

ما يكون على تعاطى تأويل متشابهاته وأجدر فى إدراك لطائف نكته وأسراره وأجلى وأبين للقناع عن وجه إعجازه فقال عليه: (لا أعلم فى باب التفسير بعد الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمى المعانى والبيان وأعون على تعاطى تأويل متشابهاته ولا أنفع فى درك لطائف نكته وأسراره ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورنقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم فأخذوا بها فى مآخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصوده وهم لا يدرون ولا يدرون أنهم لا يدرون فتلك الآى من مآخذهم فى عويل ومن محاملهم على ويل طويل — وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، اهـ[1].

وإليك ما وعدناك به فى المبحث الثانى من سوق النماذج القرآنية التى تتجلى لك فيها أوجه إعجاز القرآن الكريم من جهة بلاغته ونظمه

أما من جهة بلاغته.

فإنا نقول: إعلم أنه لا شك فى أن خصوصيات الكلام البليغ ودقائقه مرادة لله تعالى فى كونه القرآن معجزاً وملحوظة للمتحدين به على مقدار ما يبلغ إليه بيان المبين وإن إشارات كثيرة فى القرآن تلفت الأذهان لذلك.

قال الإمام الخطابى عليه الرحمة «(إعلم أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها فى درجة البيان متفاوتة ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شيء منه البتة.

(١) راجع: مفتاح العلوم ص ٢٣١

فالقسم الأول أعلاه، والثانى أوسطه والثالث أدناه وأقربه فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة وأخذت من كل نوع شعبة، وانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد فى نعوتها كالمتضادين لأن العذوبة ونتاج السهولة والجزالة والمتانة فى الكلام يعالجان نوعاً من الوعورة فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن يسرها الله بلطف قدرته ليكون آية بينة لنبيه — ﷺ — ودلالة على صحة مادعا إليه من أمر دينه »[1] أ. هـ المقصود منه.

قلت: ومن اتقن أسرار البلاغة وجودها يجد أن القرآن الكريم قد اشتمل على منتهى أسرارها فمن ذلك اشتماله على خصوصية التقسيم وحسن التقسيم من المحسنات البديعية وذلك ماتضمنه « نظم فاتحة الكتاب » وفى الحديث الصحيح « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين .... الخ »[2]

إشارة وتنبيه على ما فى نظم السورة الكريمة من قوله هذا المحسن البديعى مع ماتضمنه ذلك التقسيم من محسن التخلص فى قوله « فإذا قال العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، إذ كان ذلك مزيجا من القسمين الذى قبله والذى بعده.

وفى القرآن مراعاة التجنيس فى غيرما آية والتجنيس من المحسنات البديعية ومنه قوله تعالى (وهم ينهون عنه وينأون عنه)[3].

(١) راجع البرهان ج ٢ ص ١٠١ — ١٠٢ باختصار.

(٢) حديث أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الصلاة ب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة وأنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ماتيسر له من غيرها بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) سورة الأنعام آية ٢٦

وفيه التنبيه على محسن المطابقة كقوله (فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير)[1].

والتنبيه على مافيه من تمثيل كقوله تعالى « ويضرب الله الأمثال للناس ومايعقلها إلا العالمون »[2] وقوله « يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون »[3].

وقد جاء فى القرآن من التشبيه والاستعارة ماأعجز العرب كقوله « واشتعل الرأس شيباً »[4] وقوله « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة »[5] وقوله « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار »[6] وقوله تعالى « ابلعى ماءك »[7] وقوله « صبغة الله »[8] إلى غير ذلك من وجوه البلاغة.

ومن محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه ورأيت وسيلة ذلك الاحتراس وأحسنه ماوقع فى القرآن كقوله تعالى « فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين »[9] احتراس عن كراهة الطعام « وأنهار من عسل مصفى » احتراس عن أن تتخلله أقذاء من بقايا نحله.

(١) سورة الحج آية ٤٠
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٣
(٣) سورة إبراهيم آية ٢٥
(٤) سورة مريم آية ٤
(٥) سورة الإسراء آية ٢٤
(٦) سورة يس آية ٣٧
(٧) سورة هود آية ٤٤
(٨) سورة البقرة آية ١٣٨
(٩) سورة محمد آية ١٥

وانظر إلى التمثيلية فى قوله تعالى « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار »[1] الآية ففيه إتمام جهات كمال تحسين التشبيه لإظهار أن الحسرة على تلفها أشد .

وهذه الناحية من هذه الجهة من الإعجاز هى أقوى نواحى إعجاز القرآن وهى التى يتحقق بها إعجاز أقصر سورة منه .

هذا .. والتشبيه فى القرآن الكريم من الأساليب التى يسير بها إلى غاية بعيدة من الصدق والقوة وروعة التأثير وجودة التصوير .

وتقرير الشبه بين الأشياء وابراز المعانى البعيدة فى صورة حسية مألوفة ويبلغ فى ذلك غاية الإيجاز ومنتهى الإعجاز وهل تجد أبلغ أو أروع من قوله تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور »[2] أو قوله تعالى « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام »[3] .

ومن أتم أوصاف الظلمة الذى ليس فى كلام البشر كما يقول أبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى[4] قوله تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده ... أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها[5] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٦ .
(٢) سورة النور آية ٣٥ .
(٣) سورة الرحمن آية ٢٤ .
(٤) ج ١ ص ٢٤٤ .
(٥) سورة النور ٣٩ - ٤٠

وانظر رعاك الله إلى جمال الاستعارة فى قوله : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً »[1] ، فقد استعيرت كلمة « يموج » لمعنى الاضطراب لكن جمال الاستعارة تجاوز هذا الحد حيث جسمها الخيال وصورها جمعاً حاشداً كثير الزحام كأمواج البحر يتدافع فى صخب واضطراب .

وتدرك معى جمال المقابلة فى قوله تعالى فى تصوير المستهزئين بالمؤمنين « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون »[2] ، حيث قابل « الضحك والقلة ، بالبكاء والكثرة ، فاختصر أزمنة طوالا إذ لا يعقل أن يكون ضحك المستهزئين بالمؤمنين فى الدنيا حدث مع بكائهم فى الآخرة فشتان ما بين الوقتين لكن المقام دل على عاقبة سريعة للضحك وقرنه بالبكاء ليصور لنا أن ليس فرق زمنى بينهما فتمت المقابلة بصورة بديعة فى أدائها بليغة فى تصويرها[3] . إلى غير ذلك من روائع التمثيلات وساحر التشبيهات التى تملأ الوجدان روعة والقلب إيماناً (٤) هذا آخر ماقصدنا إلى إيراده من هذه النماذج القرآنية فى بيان جهة بلاغته وبالله التوفيق ؟

أما من جهة نظمه ، فإن القرآن الكريم قد بلغ قمة الإعجاز فجاء مشتملا على أنواع أساليب الكلام العربى وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها فمن هذه الأساليب التى جاء بها نظمه الكريم أسلوب الإيجاز وهذا الأسلوب .

---

(١) الكهف / ٩٩ (٢) التوبة / ٨٢
(٣) دراسة النص القرآنى ٧٢ — ٧٣ ا . د / سيد مرسى أبو ذكرى مجلة الأزهر عدد ٤٢٠ هـ محرم .
(٤) انظر : الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ج ٤ ص ٢٣٦ تحقيق ا . د / محمد عبد المنعم خفاجى ط ، مكتبة الكليات الأزهرية لصاحبها الأمبابى .

من أبدع الأساليب فى كلام العرب وهو متنافسهم وغاية تتبارى إليها فصحاؤهم وقد جاء القرآن بأبدعه إذ كان — مع ما فيه من الإيجاز المبين فى علم المعانى — فيه إيجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه وبعضها وإن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر فتحريك الأذهان إليه وإخطاره بها يكفى فى حصول المقصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء.

ولولا إيجاز القرآن لكان أداء ما يتضمنه من المعانى فى أضعاف مقدار القرآن وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب بالغة من اللطف والخفاء حداً يدق عن تفطن العالم ويزيد عن تبصره ولا ينبئك مثل خبير[1].

ولله در جار الله الزمخشرى إذ أبان عن هذا الأسلوب المعجز فى القرآن أعظم إبانة وذلك حيث يقول فى كشافه: (فإن قلت: كيف طابق قوله: «ما سلككم») وهو سؤال للمجرمين قوله: «يتساءلون عن المجرمين وهو سؤال عنهم وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل يتساءلون المجرمين ما سككم؟ قلت ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسؤلين عنهم لأن المسؤلين يلقون إلى السائلين ماجرى بينهم وبين المجرمين فيقولون قلنا لهم ما سككم «فى سقر قالوا لم نكن من المصلين» إلا أن الكلام جىء به على الحذف والاختصار كما هو نهج التنزيل فى غرابة نظمه»[2] ا. هـ المقصود منه.

(١) راجع التحرير والتنوير ج ١/١٢١ فما بعدها.
(٢) راجع الكشاف ج ٤/١٨٧

ومن هذا النوع قوله تعالى: «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه»[1] الآية حيث جمع بين أمرين ونهيين وبشارتين، وقوله: «ولكم فى القصاص حياة»[2] مقابلا أوجز كلام عرف عند العرب وهو «القتل انفى للقتل» ومن ذلك قوله: «وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى».

قال جار الله الزمخشرى عند تفسيره لهذه الآية: «ومجىء إخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك فى أفعاله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعى ويا سماء أقلعى — ولا أن يقض ذلك الأمر الهائل غيره ولا أن تستوى السفينة على متن الجودى وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ولما ذكرنا من المعانى والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم لالتجانس الكلمتين وهما قوله — ابلعى — اقلعى — وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التى هى اللب وما عداها قشور» ا. هـ[3].

ومن نماذج أساليبه التى جاء بها نظم القرآن أسلوب التفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتذييل والتنظير والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنباً لثقل تكرير الكلم، وكذلك أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية فهو فى القرآن كثير ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون فى نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه ومن أبدع أمثلة ذلك قوله تعالى: «مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون

(١) سورة القصص آية ٧٠ (٢) سورة البقرة ١٧٩
(٣) راجع الكشاف ج ٢ ص ٢٧١ — ٢٧٢

صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير »[1] .

وقوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما »[2] فجاء بلفظ قلوب جمعاً مع أن المخاطب امرأتان فلم يقل قلبا كما تجنبا لتعدد صيغة المثنى وتحاشياً للتكرير .

ومن نماذج أساليبه التى خالف بها نظمه كلام العرب أنه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة كما كان يفعله العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة .

ومثاله قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون »[3] ، وقوله : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله »[4] .

فبين فى الآية الأولى أن القاعدين من المؤمنين ممن ليسوا من أهل الأعذار كالعمى والعرج فالعموم فى الآية مخصص بمن ليس من أهل الأعذار بجملة « غير أولى الضرر » جملة معترضة جىء بها لبيان أنهم غير مقصودين بعدم المساواة مع المجاهدين فى الأجر .

(١) سورة البقرة الآيات ١٧ — ٢٠
(٢) سورة التحريم آية (٤)
(٣) سورة النساء آية ٩٥ (٤) سورة القصص آية ٥٠

وبين فى الثانية أن الهوى قد يكون محموداً إذا كان هوى المرء عن هدى[1] .

ومن الأساليب التى خالف بها نظمه كلام العرب أنه جاء بالأسلوب القصصى وهو يحكى أحوال النعيم والعذاب فى الآخرة وفى تمثيل الأحوال وقد كان لهذا الأسلوب تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفتقداً من أدب العربية إلا نادراً فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب يتجلى لك ذلك من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف كما جاء فى سورة الأعراف (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار)[2] إلخ الآيات وفى سورة الحديد من قوله (فضرب بينهم بسور)[3] الآيات .

ومن أساليب نظمه كذلك اختلاف سوره وتفننها لهجة وافتتاحاً فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة فإن بعضها بنى على فواصل وبعضها ليس كذلك وكذلك فواتحها منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد ، ويا أيها الذين آمنوا ، وألم ذلك الكتاب .. ، ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض[4] ، من أول الأمر نحو قوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) وقوله (براءة من الله ورسوله)[5] .

ومن أساليب نظمه توصيف الأحوال التى يراد بتفصيل وصفها إدخال

(١) التحرير والتنوين ج ١ / ١٢٠
(٢) الآيات ٤٤ — ٤٥
(٣) الآيات ١٣ — ١٥
(٤) سورة محمد آية ١
(٥) سورة براءة آية ١

الروع فى قلب السامع (وهو من أهم مقامات الاطناب) . ومثاله (كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق)[1] وقوله (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظون)[2] وقوله (مهطعين مقنعى رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم وافئدتهم هواء)[3] .

ومن أساليب نظمه ما سماه أئمة نقد الأدب بالجزالة وما سموه بالرقة وبينوا لكل منهما مقاماته وهما راجعتان إلى معانى الكلام ولا تخلو سورة من القرآن من تكرر هذين الأسلوبين وكل منهما بالغ غايته فى موقعه فبينما تسمع القرآن يقول (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)[4] ، ويقول (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً)[5] ، إذ تسمعه يقول (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)[6] .

قال عياض فى الشفاء : « إن عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية أمسك بيده على فم النبى ﷺ وقال له ناشدتك الله والرحم إلا ما كففت ، اهـ[7] .

وبعد فهذا غيض من فيض وقطر من بحر سقته بين يدى القارىء

(١) سورة القيامة الآيات ٢٦ — ٢٩
(٢) سورة الواقعة الآيات ٨٣ — ٨٤
(٣) سورة إبراهيم آية ٤٣
(٤) سورة الزمر آية ٥٣
(٥) سورة النساء آية ٢٨
(٦) سورة فصلت آية ١٣
(٧) راجع التحرير والتنوين جـ ١ ص ١١٣ فما بعدها

الكريم من المثل القرآنية الدالة على كون القرآن قد بلغ الدرجة القصوى والمنتهى الأعظم من الإعجاز للعرب من جهتيه وأعنى بهما منتهى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وما احتوى عليه من النكت والخصوصيات التى لا تقف بها عدة ويزيدها النظر مع طول الزمان جدة .

فما من نكتة أو خصوصية تخطر ببال ناظر من العصور الآتية إلا وجد آيات القرآن تتحملها بحيث لا يمكن إيداع ذلك فى كلام إلا لعلام الغيوب[1] ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)[2] ، فأنت أيها القارىء الكريم بإتقانك لهذين الوجهين من أوجه إعجاز القرآن الكريم تستطيع التفرقة بين كلام البشر وبين كلام خالق القوى والقدر وتستطيع كذلك أن تصدر حكمك بكون هذين الوجهين فى غاية الأهمية والحاجة إليهما ماسة ولا يمكن لمفسر أن يبلغ تفسيره حد الكمال إلا إذا حصلهما مع غيرهما من الوجوه الأخرى التى تدور فى فلك الإعجاز والتى لا يمكن للمتأمل أن يحصرها .

وهذا الحكم منك أيها القارىء الكريم سيكون حكماً ضرورياً وجدانياً لا تستطيع له دفعاً عن نفسك وإن عجزت عن الإفصاح عنه بقولك ولله در القائل :

يزيد على طول التأمل بهجة
كأن العيون الناظرات صياقل[3]

(١) راجع : التحرير والتنوير جـ ١ ص ١٣٠
(٢) سورة لقمان آية ٢٧
(٣) هذا البيت أورده صاحب بحث إعجاز القرآن وتطور وجوه إعجازه ص١٢٣ ، الصيقل شحاذ السيوف وجلاؤها مفرد صياقل وصياقلة =

والحاصل : أن البلاغة فى أرقى درجاتها وفصاحة النظم وحسنه قد اشتمل عليهما القرآن الكريم لم يغادر من ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ومن ثم ظل المتنزل عليه القرآن ﷺ يتحدى به فرسان البلاغة وأرباب البيان بل كلما تنا سوا ذكرهم وحرضهم وهم من هم ففيهم الفحول من الفصحاء والشعراء وأصحاب المعلقات .

قال شارح المواقف عليه الرحمة : « إن من تتبع القرآن من العارفين بالبلاغة وجد فيه فنونها بأسرها من أفادة المعانى الكثيرة باللفظ القليل ومن ضروب التأكيد وأنواع التشبيه والتمثيل — أى ضرب المثل — وأصناف الاستعارة وحسن المطالع والمقاطع من الكلام ، وحسن الفواصل والتقديم والتأخير والفصل والوصل اللائق بالمقام ، وتعريه — أى خلوه — عن اللفظ الغث — أى الركيك — والشاذ الخارج على القياس والشارد الناشز عن الاستعمال إلى غير ذلك من أنواع البلاغات .

بحيث لا يرى المتصفح له — أى القرآن وتراكيبه — المميز بين فنون البلاغة نوعاً منها — أى من تلك الفنون — إلا وجده أحسن ما يكون ، فالقرآن مشتمل على جملتها لم يغادر شيئاً منها ولا يقدر أحد من البلغاء الواصلين إلى ذروة البلاغة من العرب وإن استفرغ وسعه وطاقته فى تزيين كلامه إلا على نوع أو نوعين منها »[1] ا. هـ

= دخلت فيه الهاء لغير علة من العلل الأربع التى توجب دخول الهاء فى هذا الضرب من الجمع ولكن على حد دخولها فى الملائكة والصقيل : السيف ا. هـ من لسان العرب مادة صقل ج ٤ ص ٢٤٧٣

(١) شرح المواقف جـ ٣ ص ١٩٢ نقلا عن كتاب فى رياض العقيدة الإسلامية ص ١٧٠

هذا ما قصدت إلى إيراده من العلاقة بين الإعجاز وعلم التفسير وما تجلى لك من سوق المثل القرآنية التى أفادت اشتمال القرآن على شتى وجوه البلاغة وأفانين الفصاحة وأساليب النظم على أحسن ما يكون وأتمه ولا غرابة فى ذلك فالقرآن الكريم كلام علام الغيوب وخاتمة وحى السماء إلى عباده والمهيمن على جميع ما أنزل الله إليهم من كتاب والمعجزة الكبرى للإسلام ونبى الإسلام والمحيط بأعظم علم الأولين والآخرين والشافى لأدواء المؤمنين والوافى بجميع حاجات البشر وما يحقق سعادتهم ديناً ودنيا « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وشهيد »[1] .

وأقول : « إذا كان البحث فى إعجاز القرآن الكريم قد أدى بالعلماء قديماً إلى الكشف عن علمين جليلين هما علم البلاغة العربية وعلم النقد الأدبى . .

فالأولى بنا اليوم أن ننطلق فى ميادين البحث عن الإعجاز من جديد وأن يقودنا ذلك مرة أخرى إلى الكثير من الكشوف العلمية والأدبية .

ولو توافر العلماء والمختصون على البحوث القرآنية كل فى ناحية اختصاصه قد يؤدى بنا إلى جديد من القول ومن أسرار الإعجاز .

ومن الواضح الجلى أن القرآن الكريم قد أيد مرور الأجيال إعجازه وهو الكتاب الخاتم الخالد فلا كتاب سماوى بعده وسوف يستمر عطاء القرآن وتستمر قضية إعجازه ما بقيت الأرض والسماء »[2] .

وبالله التوفيق ؟

(١) سورة ق .

(٢) الإسلام دين الإنسانية ص ١٠٩ .

خاتمة البحث

الناظر فى هذه الدراسة لقضية الإعجاز وبيان أوجه إعجاز القرآن يتبين له أمور ثلاثة :

الأمر الأول : ما يتعلق بالجهات الأربع لإعجاز القرآن والتى هى بمثابة المعاقد لغيرها من الوجوه الأخرى .

(ا) ان إعجاز القرآن من جهتى بلاغته ونظمه وأسلوبه متوجه إلى العرب إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة — كما قد علمت — ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعى عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم . ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغاً لايستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلى وإعجازه لغيرهم دليل إجمالى .

وقد يشارك خاصة العرب — دون عامتهم — فى إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية فى مختلف العصور .

(ب) القرآن فى وجهه الثالث من وجوه إعجازه — وهو ما أودع فيه من العلوم والمعانى الحكمية والاشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية — معجز للبشر قاطبة إعجازاً مستمراً على مر العصور وهذا من جملة مايشمله قول أئمة الدين : إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانية

التشريعية والحكميه والعلمية والأخلاقية وهو دليل تفصيلى لأهل تلك المعانى وإجمالى لمن تبلغه شهادتهم بذلك .

(جـ) القرآن فى وجهه الرابع وما انطوى عليه من كون إعجازه هو إخباره عن المغيبات مما دل على تنزله من علام الغيوب معجز لأهل عصر نزوله إعجازاً تفصيلياً ومعجز لمن يجىء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن وتعين صرف الآيات المشتملة على هذه الأخبار إلى ما أريد منها[1] .

الأمر الثانى :

(أ) جاء القرآن الكريم بهدايات تامة كاملة تفى بحاجات البشر فى كل عصر ومصر وفاء لم ينتظمه أى تشريع آخر ولا تظفر به فى أى دين آخر ويتضح لك ذلك جلياً بالاستقراء للمقاصد النبيلة التى يهدف إليها القرآن الكريم فى هدايته واستميح القارىء الكريم العذر إن أطلت عليك فى عرض تلك التفاصيل لهذه المقاصد .

أولا : إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان « الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر .

ثانياً : إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى مايزكى النفوس ويغذى الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها .

ثالثاً : إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلها وتنفيرهم من رذائلها فى قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط .

---

(١) راجع : مقدمة التحرير والتنوير ج ١ ص ١٠٥ .

رابعاً : إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبية وإزالة الفوارق التى تباعد بينهم وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس واحدة ومن عائلة واحدة أبوهم آدم ، وأمهم حواء ، وأنه لافضل لشعب على شعب ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى وأنهم متساوون أمام الله ودينه وتشريعه متكافئون فى الأفضلية وفى الحقوق والتبعات من غير استثناءات ولا امتيازات وأن الإسلام عقد إخاء بينهم أقوى من إخاء النسب والعصب وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين ولسان كتابه (لغة العرب) وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا الفواصل السياسية والوضعية (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)[1] .

خامساً : إصلاح السياسة أو الحكم الدولى عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس ومراعاة الفضائل فى الأحكام والمعاملات من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والمواساة والمحبة واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات .

سادساً : الإصلاح المالى عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع ووجوب انفاقه فى وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعى المشروع .

سابعاً : الإصلاح النسائى عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية .

---

(١) سورة المؤمنون آية (٥٢) .

ثامناً : الإصلاح الحربى عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانيه فى مبدئها وغايتها ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها وإيثار السلم عليها والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها .

تاسعاً : محاربة الإسترقاق فى المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى منها الترغيب العظيم فى تحرير الرقاب وجعله كفارة للقتل وللظهار ولإفساد الصوم بطريقة فاحشة ولليمين الحانثة ولإيذاء المملوك باللطم أو الضرب .

عاشراً : تحرير العقول والأفكار ومنع الاكراه والإضطهاد والسيطرة الدينية القائمة على الإستبداد والغطرسة (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر)[1] .

(ب) وكان نتيجة ذلك الإعجاز القرآنى الدائم أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور وينقبون عما يفى بحاجتهم فى كثير من نواحى حياتهم حتى اضطروا تحت ضغط هذه الحاجة وبعد طول المطاف وقسوة التجارب أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أولا يشعرون وإليك شواهد على ذلك .

١ — أمريكا حرمت الخمر أخيراً ولكنها فشلت ولم تنجح لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التى اتبعها الإسلام فى تحريم الخمر .

٢ — أمريكا أباحت الطلاق[2] وإن كانت قد أسرفت فيه إلى درجة ضارة .

---

(١) الغاشية آية (٢١—٢٢) .

(٢) غالب سكان الولايات المتحدة الأمريكية على المذهب البروتستانتى وهو مذهب يبيح الطلاق .

٣ — أسبانيا أصدرت حكومتها قانوناً بمنع البغاء الرسمى فى بلادها ويمنع النساء من البروز على الشواطئ فى ثياب الإستحمام .

٤ — مصلحو أوروبا يرفعون أصواتهم بضرورة الرجوع إلى مبدأ تعدد الزوجات حتى بعض نسائهم طالبن بذلك .

٥ — اليهود يطالبون أيضاً بتعدد الزوجات وقد تزعم هذه الحركة يهودى اسمه موريشة ليكفرمان وبرهن على أن ذلك من أحكام الدين اليهودى وطالب إلى اليهود إلغاء قرار الحاخام غرشون الذى تعدى حدود الدين اليهودى بإبطاله الزواج بأكثر من واحـــدة وأصبح له — أى اليهودى المذكور أولا — أتباع كثيرون .

٧ — زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها فى الحرب القائمة الآن يقول إن سبب إنهيار دولتهم هو إنغماسهم فى الشهوات الجنسية وإسرافهم فى المفاسد والمفاتن[1] .

الأمر الثالث : أفادت هذه الدراسة أن الإعجاز التشريعى لا يقل شأنا عن الإعجاز البلاغى والنظمى أو العلمى أو التاريخى (الإخبار عن المغيبات) .

ذلكم لأنه كما تقرر لك فى الأمر الثانى أن القرآن الكريم كتاب هداية وماجاء أصلا إلا للهداية وتقرير منهاج الله لعباده وشريعته للناس، وما جاءت وجوه الإعجاز اللغوى (البلاغى — والنظمى) أو العلمى والتاريخى إلا لخدمة هذا الأصل واستمالة وجوه الناس إليه .

وإذا كان العلماء الأعلام قدست أسرارهم قد استوفوا الكلام

(١) راجع مناهل العرفان ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٩

استيفاء يكفى ويشفى فى بيان وجوه إعجاز القرآن فى لفظه ونظمه وبلاغته فإننا نأمل أن يستوفى العلماء كذلك « الإعجاز التشريعى » على نمط علمى جامع يقرر به وجوه الإعجاز فى قواعدها وخصائصها وعناصر الموازنة الفذة فى بنائها مثل المرونة ، والثبات والعدل والفضل ونحو ذلك لشعورنا أن « الإعجاز التشريعى » هو المعجزة الدائمة التى تتحدى البشر فى كل زمان ومكان خاصة فى عصور « الغرور العلمى » والفكرى والمذهبى الذى يسود العالم .

وقد أوقفناك على نموذجين فى جانب الإعجاز التشريعى مما سطره قلم العلامة سعيد النورسى رحمه الله ورأيت فيهما كيف وقف الإعجاز التشريعى فى القرآن الكريم شامخاً يطاول الجوزاء ورأيت مابينه وبين التشريعات الوضعية التى أوردت أصحابها موارد الهلكة .

فالقرآن الكريم معجز فى تشريعه ذلكم لأن أحكامه التشريعية . وافية بمطالب البشر فى كل زمان ومكان وفى كل حكم من أحكامه ضرب من الإعجاز التشريعى ويكفى أن نعلم أن هذا التشريع على كثرة قوانينه وفروعه ومسائله قد خلا تماماً من التناقض والإختلاف والزيغ والإنحراف وصدق الله العظيم إذ يقول (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً)[1] .

وقد جود القول فى هذا الجانب شيخ الأشياخ الزرقانى فارجع إليه إن شئت[2] ، وللشيخ رشيد رضا بحث جيد فى هذ الجانب أسماه « الوحى الحمدى » فارجع إليه إن شئت[3] .

(١) سورة النساء آية (٨٢)

(٢) راجع المصدر السابق عند حديثه عن الوجه السادس من وجوه الإعجاز .

(٣) أشار إلى هذا شيخنا ا.د/ عبد الستار فتح الله سعيد — أطال الله =

ونأمل أن تتوالى جهود العلماء فى تجلية جانب الإعجاز التشريعى على أساس علمى جامع تبرز فيه خصائص التشريع القرآنى. والله أعلم

وبعد:

فهذه هى أهم النتائج التى أثمرتها تلك الدراسة المتواضعة فى قضية الإعجاز فى القرآن الكريم.

وهذا هو جهدى المتواضع أضعه بين يدى القارىء الكريم أسأل المولى العظيم رب العرش الكريم أن يغفر لى ذلتى ويقبل عثرتى ويستر عيوبى وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن يثقل به موازينى.

وصلى الله على سيدنا ومعلمنا محمد إمام المرسلين ورحمة الله للعالمين وعلى آل بيته وذريته الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه الباوى
عبد الفتاح عبد الغنى محمد إبراهيم العوارى
مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين — القاهرة جامعة الأزهر

= عمره — فى كتابه المدخل إلى التفسير الموضوعى ص ٤٨ — ٤٩ وانتفعت بعبارته فى تجلية هذا الأمر.

ثبت المراجع العلمية

١ — القرآن الكريم.

٢ — الإتقان فى علوم القرآن للحافظ السيوطى ط. دار الفكر.

٣ — الإرشاد لإمام الحرمين الجوينى تحقيق ا. د/ محمد يوسف موسى ط الخانجى.

٤ — إعجاز القرآن للإمام أبى بكر الباقلانى على هامش الإتقان ط. دار الفكر.

٥ — إعجاز القرآن والبلاغه النبوية للأستاذ/ مصطفى صادق الرافعى تحقيق/ محمد سعيد العريان ط. المكتبة التجارية بمصر.

٦ — إعجاز القرآن للأستاذ الشيخ/ عبد الرحيم فرغل البلينى بالآلة الكاتبة مسحوبة على استنسل.

٧ — إعجاز القرآن للشيخ الدكتور/ السيد محمد الحكيم ط دار التأليف سنة ١٣٩٨ هـ.

٨ — اعجاز القرآن وتطور وجوه إعجازه للأستاذ الشيخ/ عبدالستار السيد بحث منشور ضمن سلسلة بحوث بمجمع البحوث الإسلامية فى مؤتمره السابع تحت عنوان «مشكلات المجتمع الإسلامى المعاصر» العدد (٣).

٩ — الإعلام للزركلى ط. دار إحياء التراث العربى.

١٠ — الاقتصاد فى الإعتقاد لحجة الإسلام الغزالى ط السعادة ط ٢/ ١٣٢٧ هـ.

١١ — الايضاح فى علوم البلاغة للقزوينى تحقيق ا. د محمد عبدالمنعم خفاجى ط. مكتبة الكليات الأزهرية حسين محمد الأمبابى وخوه محمد.

١٢ — الإنصاف للباقلانى ط . مؤسسة الخانجى للطباعة والنشر ١٣٨٣ هـ .

١٣ — البحر المحيط لأبى حيان ط . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط ٢ / ١٩٨٣ م

١٤ — البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ط دار الفكر العربى .

١٥ — البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق . أ . محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الفكر .

١٦ — تفسير القرآن الحكيم (المنار) للأستاذ رشيد رضا ط . دار المنار .

١٧ — تيسير التحرير / محمد أمين المعروف بأمير بادشاه ط . مصطفى الحلبى .

١٨ — التحرير والتنوير للشيخ الطاهر ابن عاشور ط الدار التونسية .

١٩ — التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول للشيخ على ناصف دار الكتب العلمية بيروت .

٢٠ — جمع الجوامع والمحلى عليه لابن السبكى وشارحه الجلال المحلى ط . مصطفى الحلبى

٢١ — الجامع الأحكام القرآن للقرطبى ط دار الغد العربى ط ١ ١٤٠٩هـ — ١٩٨٩ م .

٢٢ — حاشية البنانى على جمع الجوامع ط . مصطفى الحلبى .

٢٣ — حول إعجاز القرآن . أ . د : على العمارى . هدية مجلة الأزهر عدد شهر شوال ١٤١٩هـ ١٩٩٩ م يصدرها مجمع البحوث الإسلامية السنة الحادية والسبعون .

٢٤ — خاتم النبيين للإستاذ الإمام محمد أبى زهرة ط . دار الفكر العربى ط الأولى ١٩٨٢ م

٢٥ — دراسات فى مناهج المفسرين لشيخنا . أ . د . إبراهيم عبد الرحمن خليفه ط . دار الوفاء .

٢٦ — دراسات فى علوم القرآن : أ . د / محمد بكر إسماعيل ط دار المنار ط ١٤١١ هـ ١٩٩١ م .

٢٧ — دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق . أ / محمد عبده والشيخ الشنقيطى ط . محمد على صبيح ط ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ م

٢٨ — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ط دار الفكر

٢٩ — سنن أبى داود ط . مصطفى البابى الحلبى .

٣٠ — سنن الترمذى ط . مصطفى البابى الحلبى .

٣١ — سنن الدارمى ط دار المحاسن ط ١٣٨٦ هـ تحقيق السيد عبد الله

٣٢ — سلم الوصول شرح نهاية السول للعلامة بخيت المطيعى ط عالم الكتب بيروت .

٣٣ — شرح السنة للإمام البغوى تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش المكتب الإسلامى سوريا .

٣٤ — شرح المطول على التلخيص للعلامة السعد التفتازانى ط . الحلبى

٣٥ — شرح المقاصد للعلامة السعد التفتازانى ط الحلبى .

٣٦ — الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ط الحلبى .

٣٧ — صحيح البخارى بحاشية السندى ط دار الكتب العلمية بيروت .

٣٨ — صحيح مسلم بشرح النووى ط المكتب الإسلامى بسوريا .

٣٩ — الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للشيخ / يحى العلوى اليمنى ط دار الكتب العلمية بيروت .

٤٠ — غرائب القرآن للنيسابورن على هامش جامع البيان للطبرى ط دار المعرفة للطباعة دار النشر بيروت لبنان .

٤١ — غاية المرام فى علم الكلام للآمدى .

٤٢ — فتح البارى شرح البخارى لابن حجر العسقلانى ط دار التراث العربى بيروت .

٤٣ — فواتح الرحموت شرح مسلم لثبوت للعلامة محب الله بن عبد الشكور ط دار أحياء التراث العربى .

٤٤ الفتوحات الإلهية للعلامة الجمل ط دار إحياء الكتب العربية فيصل الحلبى .

٤٥ — الفصل فى الملل والنحل لابن حزم دار الفكر العربى .

٤٦ — القرآن يتحدى د / أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ط دار السعادة .

٤٧ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل لجار الله الزمخشرى ط دار الفكر بيروت .

٤٨ — لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بدون تاريخ .

٤٩ — مجمع البيان للطبرسى ط العرفان صيدا سوريا ١٩٣٧ م .

٥١ — مجمع الزوائد للهيثمى ط دار التراث العربى .

٥١ — المحرر الوجيز لتفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسى ط المجلس العلمى بفاس ط ١٣٩٥ هـ — ١٩٩٥م .

٥٢ — المحصل فى علم الكلام للرازى ط دار الفكر بيروت .

٥٣ — مختصر المنتهى الأصولى لابن الحاجب ط دار الكتب العلمية بيروت .

٥٤ — مدارس ومناهج فى تفسير القرآن الكريم لشيخنا : أ . د . عبد الغفور مصطفى يدون

٥٥ — المدخل إلى التفسير الموضوعى لشيخنا أ . د عبد الستار فتح الله سعيد ط دار الطباعة الإسلامية .

٥٦ — مستدرك الحاكم ط دار الفكر بيروت .

٥٧ — مسلم الثبوت فى علم الأصول للعلامة عبد العلى بن نظام الدين الأنصارى ط . دار إحياء العربى .

٥٨ — مسند الإمام أحمد بن حنبل ط دار الفكر .

٥٩ — معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ط دار الفكر العربى تحقيق محمد على البجاوى .

٦٠ — معجم ألفاظ القرآن الكريم أصدره بمجمع اللغة العربية بمصر ط الهيئة العامة للمطابع الأميرية .

٦١ — مفاتيح الغيب / للفخر الرازى ط دار الفكر .

٦٢ — مفتاح العلوم للإمام السكاكى ط الحلبى .

٦٣ — مقدمة ابن خلدون تحقيق . د على عبد الواحد وافى ط البيان العربى ط ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .

٦٤ — مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ / محمد عبد العظيم الأزمانى ط دار إحياء الكتب العربية / الحلبى

٦٥ — منة المنان فى علوم القرآن لشيخنا . أ . د . إبراهيم خليفة ط دار الفجر الجديد .

٦٦ — الموافقات فى أصول الأحكام للإمام الشاطبى المالكى تحقيق وشرح الشيخ عبد الله دراز وولده العلامة . أ . د . محمد عبد دراز رحمهما الله تعالى ط دار الفكر .

٦٧ — المواقف فى علم الكلام وشروحه ط . الحلبى .

٦٨ — النبأ العظيم . أ . د : محمد عبد دراز ط دار السعادة بمصر .

٦٩ — نهاية السول شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول ط عالم الكتب بيروت للعلامة الأسنوى .

٧٠ — هوامش على العقيدة النظامية لشيخنا . أ . د / محمد عبد الفضيل القوصى ط دار الطباعة . المحمدية درب الأتراك القاهرة .

٧١ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان للإمام ابن خلكان تحقيق د . إحسان عباس ط دار صادر بيروت .